الكلبة
التي تجرّأت على الحلم
THE DOG WHO DARED TO DREAM

روايـة

صن-مي هوانغ

ترجمة

زينة إدريس

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

THAQAFA ثـقـافـة
لـلـنـشـر والـتـوزيـع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.
الإمارات
U.A.E.

الكلبة
التي تجرّأت على الحلم

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
THE DOG WHO DARED TO DREAM
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من المؤلفة
Sun-mi Hwang, c/o KL Management of 3F, 14, Samseongyo-ro, Seongbuk-gu, Seoul 02865 Korea, in association with Barbara J. Zitwer Agency of 525 West End Ave, Suite 11H, New York, NY 10024 USA.
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين ثقافة للنشر والتوزيع ذ.م.م.

LTI LITERATURE TRANSLATION INSTITUTE OF KOREA
This book is published with the support of the
Literature Translation Institute of Korea (LTI Korea)

الطبعة الأولى: آذار/مارس 2022 م - 1443 هـ

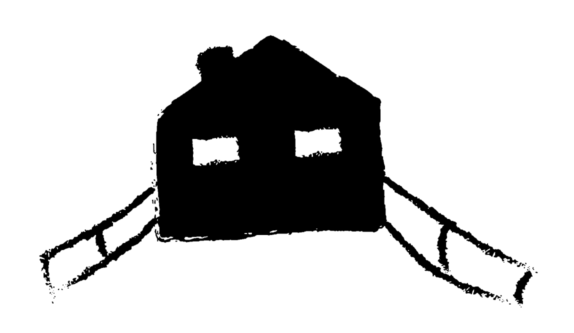
ردمك 978-9948-471-25-7

THAQAFA ثقافة
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.
الإمارات U.A.E.
كابتال تاور، مركز أبو ظبي للمعارض ADNEC
ص.ب: 27977، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة
هاتف: 6766700 (2-971+) فاكس: 6766972 (2-971+)
بريد إلكتروني: smartd_1@eim.ae

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

المحتويات





الرجل العجوز

رفعت الكلبة البنّية رأسها عن الأرض وهدرت وهي ترضع صغارها. كان ذلك كلّ شيء، حتّى إنّها لم تكشّر عن أنيابها. تمتمَت: «ظننتُ أنّه لن يأتي إلّا بعد أن نهلك جوعاً».

قعقعت بوّابة الشبك السلكية، المغطّاة ببطّانية، وهي تُفتح. فاندفع الهواء البارد إلى الداخل. نظرت وهي ترتجف إلى الألوان المتغيّرة لشجرة الكاكي في الخارج، بينما دخل العجوز القفص المعدني الكبير. كان وقع خطواته قد أنذرها بقدومه، وما كانت لتبقى بهذا الهدوء لو كان القادم شخصاً آخر. ففي النهاية، لم يمض سوى ثلاثة عشر يوماً على ولادة الصغار.

أغلق العجوز البوّابة خلفه، ووضع طبقاً على الأرض يتصاعد منه البخار. نفخ دخان سيجارته، فاختفى وجهه خلف ضبابها. قال وهو يمدّ يده إلى الأسفل لإبعاد الجراء: «لم تعودوا خضر اللون أيّها الصغار». غير أنّ الجراء واصلت الرضاعة، وأعينها مغمضة. «أيّها الأوغاد! ستقتلونها إذا واصلتم الرضاعة بهذا الشكل».

تمتمت الكلبة الأمّ وهي تقف ببطء: «فعلاً، لهذه الجراء شهيّة كبيرة». بدت مرهقة. كانت حلماتها حمراء ومنتفخة

وفراؤها متصلّباً. أخيراً، بدأت بالتهام إفطارها.

قرفص العجوز على مقربة منها، وأنهى سيجارته وهو يراقبها. كانت ترتجف، فيما برزت عظام كتفيها من جسدها النحيل. راحت الجراء تشتمّ المكان بحثاً عن أمّها، وهي تئنّ لجذب انتباهها. غير أنّها لم تكترث لها، بل ركّزت على طعامها.

أطفأ الرجل مدفأة الكيروسين الموضوعة في الزاوية، والتي كانت مشتعلة طوال الليل، وقال: «كلّ منها بلون مختلف».

كان اثنان منها بنّيين بالكامل، واثنان بنّيين مرقّطين بالأبيض، وثلاثة بنّية مرقّطة بالأسود، وواحدة داكنة جدّاً، سوادها مائل إلى الزرقة تقريباً.

قال وهو يمرّر يده الخشنة على جسد الأمّ: «تنتظرنا بضعة أيّام أخرى من العمل الشاقّ، ثمّ نجد لها مالكين قريباً».

أنهت الأمّ طعاملها بالكامل، لكنّها لم تشبع تماماً. فلعقت البقايا على الأرض، ثمّ نظرت إلى العجوز الذي كان يحمل جرواً مرقّطاً دُفع عن البطانية التي كانت بقيّة الجراء مستلقية عليها.

تمتم قائلاً: «إنّه البكر...» ونظر إليه بحزن. كان الجرو قد تصلّب أساساً. «كان ضعيفاً منذ البداية، والآن رحل».

تنهّدت الأمّ قائلة: «لقد ولد ذاك الصغير ضعيفاً جدّاً، حتّى إنّه لم يرضع كما ينبغي. لماذا يسبّب لي البكور البكاء دائماً، في كلّ مرّة؟» ثمّ استلقت مجدّداً وهي تخرّ. تهافتت عليها الجراء، وراحت تدفعها برؤوسها وتدوس على جسدها بأكفّها الأمامية. فاهتزّ بطنها برفق. كافح الصغار بحثاً عن الحلمات، فدفع

الجروان الأقوى، وكلاهما بنّيان، أشقّاءهما جانباً، واستقرّا في الوسط. أمّا الجروة السوداء، فبقيت في الخلف. حاولت أن تشقّ طريقها مجدّداً، لكنّها لم تستطع أن تتسلّق قوائم أشقّائها. جرّبت حظّها مجدّداً وهي تئنّ، لكنّ أيّاً من إخوتها لم يفسح لها المجال.

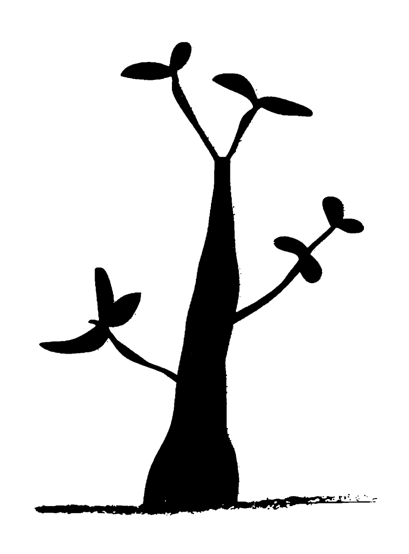
حدّق إليها العجوز قائلاً: «أنت بالتأكيد لست الأضعف، فلماذا تسمحين لهم بدفعك بعيداً؟». وضع الجروة الصغيرة الخفيفة على راحة يده، وتابع قائلاً: «كيف يُعقل أن تنجب أمّك جروة بهذا اللون؟ لقد نبت فراؤك منذ الآن. أنت سوداء بالكامل!».

قالت الأمّ: «إنّها الأولى بالنسبة إليّ أيضاً، فوالدهم ليس بهذا اللون».

اشتمّت الجروة السوداء يد الرجل، فوجدتها برائحة المعدن. كانت تعرف هذه الرائحة. ففي وقت سابق، دفعها إخوتها، وتسبّبوا في سقوطها على الأرض العارية. فارتطم رأسها بالشبكة السلكية، وغمرتها هذه الرائحة. ارتعش جفناها، وآلمها رأسُها مجدّداً. فتحت عينيها ببطء لترى وجه الرجل المتجعّد، الذي تكسوه بقع بقشور داكنة خلّفتها حروق الشرر المتطاير على وجهه وهو يلحّم الحديد.

«انظري إلى حالك! أنتِ أوّل من فتح عينيه بينها!». ثمّ انتزع العجوز جرواً بنّياً استقرّ في الوسط، ووضع الجروة السوداء مكانه.





الغريب

لوّح الجدّ صيّاح بالمكنسة قائلاً: «أنزليه حالاً!».

أُجفلت الكلبة الأمّ وأسقطت فِلفل، الذي كان يئنّ على نحو مثير للشفقة، ثمّ هربت وهي تنبح إلى حديقة الخضار. هناك، كان الملفوف قد أصبح جاهزاً تقريباً للقطف من أجل إعداد الكيمتشي للشتاء.

صاح الجدّ وهو يلوّح بالمكنسة: «أيّتها العفريتة! اخرجي من هناك حالاً!».

أطلقت الجراء على العجوز اسم الجدّ صيّاح لكثرة ما كان يصرخ ويصيح. لكنّ الذنب كان ذنب الجراء إلى حدّ ما. فهي تتجوّل في مجموعة، وتدمّر الأشياء، وتمضغ الأحذية، وتلعب بالصينية التي تركتها الجدّة فوق الأواني الفخّارية في الفناء، وتأكل كلّ السمك الذي يجفّف على الصينيّة، وتقضم شرائح الكوسا المجفّفة. وعندما تملّ من مضغ الخضار، تتغوّط عليها. ليس هذا فحسب، بل كان تعبث أحياناً بالغسيل النظيف الذي يسقط على الأرض. وذات مرّة، تمكّنت حتّى من دخول الكوخ واللعب بحبل هناك، لينتهي الأمر بالتفاف الحبل حول عنق أحد الجراء بحيث كاد يخنقه.

صاحت الأمّ من حديقة الخضار: «أين ابنتي الكبرى؟ أين هي؟».

بالطبع، لم يستطع الجدّ صيّاح فهم ما كانت تقول. فصرخ وهو يتجوّل حاملاً المكنسة بيده: «لقد بدأتِ تثيرين أعصابي حقّاً!». فاختبأت خلف الأواني الخزفية ثمّ ركضت في الفناء. اندفعت عائدة إلى حديقة الخضار، ومن ثمّ إلى الكوخ. وطوال الوقت، كانت تنبح منادية: «أين ابنتي الكبرى؟ أين هي؟».

كانت الجروة السوداء، زيتونة، جاثمة تحت النافذة، تشاهد والدتها والجدّ صيّاح وهما يجريان في المكان. من الواضح أنّ كانت أمّها غاضبة. سيتحتّم عليها أن تنتبه لئلّا تتعرّض للضرب مثل فِلفل المسكين. غضبت أمّها منذ بضعة أيّام أيضاً. فقد دخل غريب القفص، وداس على بطّانيتهم. كانت رائحته غير مألوفة. بعد ذلك، أخذ أحد إخوتها المرقّطين.

تكرّر الأمر نفسه هذا الصباح. إذ أتى أحدهم لرؤية الجدّ صيّاح، ثمّ أخذ أكبر الجراء سنّاً معه إلى بيته. لكنّ أمّهم كانت قد رافقت الجدّة إلى مزرعة الدواجن، وفاتَتها الصفقة. لم تعجب زيتونة رائحة الشِّياط التي فاحت من الرجل. فقد كان ينتعل حذاء محروقاً. وعندما اقترب منها ذلك الغريب مبتسماً، تكوّرت على نفسها. كانت مستعدّة لعضّه لو تجرّأ على مدّ يده إليها، غير أنّه لم يلق عليها سوى نظرة عابرة.

«سلوك لطيف!» صدرت ضحكة يقشعرّ لها البدن من أعلى

الحائط، وقاطعت حبل أفكار زيتونة. كانت صادرة عن الهرّة العجوزة.

حدّقت زيتونة إلى الهرّة، التي أطلّت عليها من الأعلى. لم تثق بالهرّة العجوز. فهي لا تكفّ عن التسلّل بصمت، والتجسّس على الجميع. نبحت الجروة الصغيرة، فكشّرت الهرّة عن أسنانها ساخرة، وضاقت عيناها، بينما أومضت أسنانها الحادّة. شعرت زيتونة بوبر ظهرها يقف. أمّا الهرّة العجوز، فضحكت وهي تسير ببطء على طول حائط الجيران، الأمر الذي سبّب لزيتونة الدوار. كان الرجل الذي أخذ الجروة الكبرى قد تحدّث بصوت أجشّ، تماماً مثل الهرّة. فنبحت على الهرّة، التي لوّحت بيدها، ثمّ اختفت أسفل الجانب الآخر من الحائط.

خرجت الجدّة من المطبخ متذمّرة: «توقّفا عن ذلك، كلاكما. الكلاب والرجال، أنتم أسوأ من بعضكم!».

علا صوت الجدّ صيّاح ساخطاً: «ماذا قلت؟ الكلاب والرجال؟».

تظاهرت الجدّة بأنّها لم تسمع. وضعت مئزراً ولفّة قشّ في حوض كبير، استعداداً للذهاب إلى السوق لبيع السمك. كانت تذهب إلى العمل في الصباح، وتعود بعد حلول الظلام حاملةً بقايا أجزاء السمك، التي تسلقها وتضعها طعاماً للكلاب. لهذا السبب تحديداً كانت الجراء تهزّ أذيالها عندما تسمعها وهي تقترب. ذكّرت الجدَّ قائلة: «عليك أن تدّخر بعض المال الذي تكسبه من بيع الجراء في المصرف. فتشانو سيرسل دونغي إلى

الحضانة قريباً، وأنا أودّ أن نعطيهم مبلغاً بسيطاً، بصفتنا جدّاه». وعلى ذلك، رفعت الحوض على رأسها وغادرت المنزل.

تذمّر الجدّ صيّاح قائلاً: «المال من أجل حضانة دونغي؟ وماذا فعل لنا تشانو؟ كيف يفترض بنا أن نتمكّن من ذلك؟ لقد تأخّرتُ في دفع إيجار المتجر، وعليّ أن أسدّد ثمن قطع الغيار التي أحضرتها للدرّاجة». أسند المكنسة على شجرة الكاكي، وملأ دلو ماء من الصنبور، ثمّ أدخله القفص، بينما سارعت الجراء تجري خلفه وقد ألصقت أنوفها بالدلو. وما لبثت أمّها أن انضمّت إليها.

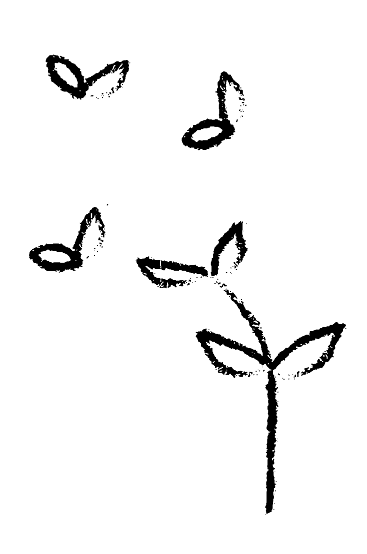
نهضت زيتونة متعثّرة، لكنّها راقبت من بعيد. كانت أمّها تدفعها بعيداً كلّما حاولت الانضمام إلى البقيّة. ومع أنّ زيتونة كانت تقاوم عندما يدفعها إخوتها جانباً، إلّا أنّها كانت تعلم تفضّل أن تحفاظ على مسافة بينها وبين أمّها، التي لا يبدو أنّها تحبّها. تمتمت الأمّ بصوت مسموع: «تلك الصغيرة شعثاء بعض الشيء».

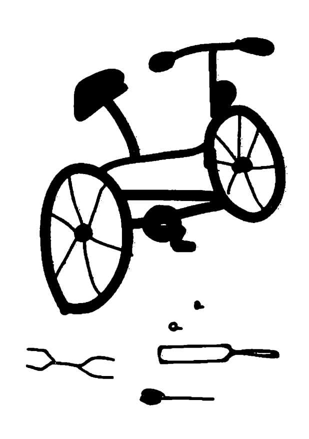
كلّما سمعَت زيتونة أمَّها تتذمّر، كانت تنظر إلى قوائمها. كان ذلك بسبب فرائها، الأسود والأشعث، الذي يسقط فوق عينيها. حتّى إنّها تبدو زرقاء اللون في بعض الزوايا. وكان إخوتها يسيئون معاملتها، على غرار أمّهم. فلم يسمحوا لها بالاقتراب منهم، ولم يرغبوا في مشاركتها طعامهم. لذلك تعلّمت زيتونة أن تختطف حصّتها وتبتلعها على الفور.

أطلق الجدّ صيّاح صفرة طويلة. «زيتووون! تعالي».

هرولـت ودسّـت خطمهـا في الدلـو، وراحت تلعـق الماء. عندما يكون الجدّ صيّاح موجوداً، لا تزعجها والدتها كثيراً. لذا، كانـت تفـرح بوجـوده. فلو قرّر إخوتهـا ركل الدلو وهم يلعبون، فإنّهـا لـن تحصـل على فرصة أخرى للشـرب حتّى عـودة الجدّة والجدّ إلى المنزل ليلاً.

مرّر الجدّ صيّاح يده على ظهرها متمتماً: «أنت كلبة غريبة، إلـى مـن سـتذهبين يا تـرى؟». انكمشـت على نفسـها، لكنّها لم تهرب. كانت يده خشنة، غير أنّها دافئة أيضاً. في بعض الأحيان، كان الجـدّ صيّـاح يناديهـا «زيتـووون!» ومع الوقـت، كان فراؤها الأسود الطويل واللامع يزداد تجعّداً. هكذا، بدت مختلفة تماماً عن إخوتها، لكنّها الوحيدة التي سمّاها الجدّ صيّاح.





لصّة على الحائط

كان الجوّ بارداً في الليلة السابقة. فقد كسا الصقيع الأبيض كلّ شيء، من الحائط، إلى أغصان الشجر، والملفوف في حديقة الخضار، والقشّ المكدّس في حقول الأرزّ أمام المنزل. ذاب الصقيع تدريجيّاً تحت شمس الصباح. وطار عقعق إلى أعلى الشجرة لينقر ثمرات الكاكي، ثمّ صاح عندما رأى الهرّة العجوز تتجوّل على الحائط.

سألَت الجدّة وهي ترفع الحوض على رأسها متوجّهة إلى العمل: «هل بعتَ تلك الدرّاجة التي صنعتَها؟».

فرك الجدّ صيّاح الصقيع عن مقعد درّاجته بمنشفة مجيباً: «أصلحتُ بعض الإطارات التي كان يتسرّب منها الهواء. لو أمكنني بيع الدرّاجات التي صنعتُها، لكنّا ثريَّين الآن. إذا رغب فيها أحدهم، فإنّني سأعرض عليه سعراً جيّداً».

نصحته الجدّة قائلة: «حسناً، لا تمنح خصماً كبيراً جدّاً. فقد عملتَ بجدّ على تلك الدرّاجات. بقيتَ تحدّق إليها لأيّام! لذا لا ترضخ بسهولة. لا تتخلَّ عنها لمجرّد أنّ أحدهم حدّثك بلطف».

ارتفع صوت الجدّ صيّاح: «أنا؟ أنا أرضخ بسهولة؟».

خرجت الجدّة من البوّابة، ثمّ نبّهته قائلة: «لقد وضعوا سمّ

فئران بسبب تساقط المحصول. احرص على إقفال هذه البوّابة قبل أن تغادر، فنحن لا نريد للكلاب أن تخرج وتمرض».

نفض الجدّ صيّاح منشفته متذمّراً: «ومن أنا، أباها؟». لكنّ الجدّة كانت أصبحت بعيدة عن السمع. نظر إلى القفص. كانت الجراء تراقب، مطلّة برؤوسها، لكنّها تراجعت إلى الخلف عندما رأته ينظر إليها.

«سمّ فئران، هذا خطر». حمل الجدّ صيّاح لوحَين خشبيّين، كانا مُسندَين إلى جوار القفص. «سأتأكّد من أنّها بأمان. فهي ستجلب لي مبلغاً جيّداً، في النهاية». نظر إلى البوّابة، ولانت ملامح وجهه. «إنّها تخرج لبيع السمك مع أنّها تشعر بتوعّك... يا للمسكينة! ولدينا ابن وابنة يجب أن يقدّما لنا العون». ثمّ حمّل اللوحين على درّاجته.

أطلّت الجراء برؤوسها من باب الشبك السلكي الذي كان مفتوحاً. كانت أمّها في وجارها، بجانب القفص، تغفو مسندة رأسها إلى قائمتيها الأماميتين.

نقر الجدّ صيّاح على القفص السلكي. «كونوا يقظين واحرسوا المنزل! لا أستطيع أن أبقيكم حبيسي ذلك القفص طوال اليوم، ولكن لا تخرجوا من تلك البوّابة».

استيقظت الأمّ فجأة ووقفَت. فخفضت الجراء أذيالها وتراجعت إلى الزاوية. قام الجدّ بتقييد الأمّ، الأمر الذي كان يفعله كلّما غادر المنزل، إذ كان عليه التأكّد من أنّ رأسماله بأمان. «لقد ذهبَت الجدّة إلى العمل مع أنّها مريضة». كان يخاطب

الـكلاب بمـرارة، كمـا لـو أنّ الجدّة لا ترتاح بسـببها. تابع قائلاً: «لذا اعتنوا بالمنزل جيّداً يا رفاق، مفهوم؟».

لم يبدُ على الأمّ الاكتراث. «ربّاه، أذناي».

قلّدتها عسليّة، الجروة البنّية الكبيرة: «ربّاه، أذناي».

فصاحت بها الأمّ بحدّة: «تأدّبي!».

أنّت عسليّة وانكمشت بقيّة الجراء على نفسها.

ضحك الجدّ صيّاح قائلاً: «لا داعي لأن تكوني قاسية جدّاً علـى صغـارك، فلا جـدوى من ذلك. كنتُ مثلـك، وانظري أين أصبحت. يعتقدان أنّهما ربّيا نفسيهما بمفردهما! لا يريدان العيش معنـا، ولا يرفعـان سـمّاعة الهاتـف حتّـى عندما تكـون والدتهما مريضة»، ثمّ قاد درّاجته إلى البوّابة.

لوّحت الجراء بأذيالها مودّعة.

خرج الجدّ صيّاح، وأسـند اللوحين الخشـبيين على البوّابة ليسدّ الفجوة تحتها، من باب الاحتياط.

بقيت زيتونة بالقرب من البوّابة، رافعة أذنيها، إلى أن سمعَت عجـلات الدرّاجـة وهـي تنعطف. كانت ترغب في الذهاب معه. ذهبَت تحت شجرة الكاكي، ولعقت ثمرة كانت قد تناثرت على الأرض عندمـا أسـقطها العقعـق. وجدتها متجمّـدة قليلاً وباردة على لسانها.

قال صوت بغيض من فوقها: «أنا جائعة أيضاً».

نظـرت زيتونـة إلى الأعلى. كانت الهرّة العجوز تسـير على أعلى الحائط، وتفوح منها رائحة كريهة. بحثت عن أمّها، لكنّها

كانت قد عادت إلى وجارها، وجلست لتغفو مجدّداً، بينما راحت بقيّة الجراء تتجوّل حول حديقة الخضار وهي تلعب الغمّيضة بحماسة.

كشّرت الهرّة عن أسنانها قائلة: «لقد وضعوا سمّ فئران في جميع الحقول، هذا ما يفعلونه عند كلّ حصاد. أغبياء! الآن لن أتمكّن من أكل الفئران لبضعة أيّام. ألا تشعرين بالحزن عليّ أنا المسكينة؟»، ثمّ جثمت على الحائط.

أُجفلت زيتونة، متوقّعة أن تقفز الهرّة عن الحائط وتهبط في الفناء.

تابعت الهرّة بتصنّع: «لا بدّ أنّك تشعرين بالملل، هل تريدين اللعب معي؟».

نبحت زيتونة بصوت عالٍ لتسمعها أمّها. فاستيقظت الأمّ وزمجرت، بينما ارتفع نباح الجراء من حديقة الخضار.

هسّت الهرّة: «براحتك». ثمّ قفزت عن الحائط إلى فناء منزلها.

واصلت زيتونة النباح. فوبّختها أمّها قائلة: «هسّ! أنا أحاول النوم».

صمتت زيتونة، لكنّ رائحة الهرّة بقيت عابقة في الهواء على نحو أزعجها. عادت تتجوّل تحت شجرة الكاكي. سمعت جلبة من حديقة الخضار، كانت الجراء الأخرى تتّحد ضدّ بوبي. كان الجرو المرقّط بالأسود هو الأصغر والأضعف بينها. فاقتربت زيتونة وصاحت: «كفّوا عن ذلك، جميعكم!».

صاحت عسليّة بحدّة: «اغربي من هنا».

كان بوبي يلعق قائمته وهو يئنّ. أهو ينزف؟

حذّرته عسليّة قبل أن تخرج من حديقة الخضار: «إذا أزعجتني مجدّداً، فإنّني سأعضّ قائمتك الأخرى!». تبعتها بقيّة الجراء، بينما بقي بوبي في مكانه، يبكي ويلعق جرحه. لم تكن المرّة الأولى التي تستقوي فيها عسليّة على بقيّة الجراء، مستفيدة من حجمها.

استسلمت زيتونة، وذهبت لتجد شيئاً تفعله. وجدت صندوقاً خشبياً تحت شجرة الكاكي. وبعد أن جلست، بدأت تقضمه، لتريح أسنانها الناشئة. كانت كلّ الجراء تحبّ أن تمضغ هذا الصندوق، تماماً مثل الشبكة السلكية، لكنّ عسليّة تفضّل الأحذية، الأمر الذي سبّب لها كثيراً من المشاكل مع الجدّ صيّاح. بعد برهة، تناهى صوت موسيقى إلى مسمعيها من بعيد. في إحدى المرّات، أخبرتها أمّها أنّ الموسيقى آتية من الكنيسة، وأنّها كانت متّجهة نحوها عندما قابلت أباهم.

كانت عسليّة منشغلة الآن بقضم الغسيل النظيف الذي بعثرته الرياح، فيما راحت الجراء المرقّطة تلعق وجوه بعضها البعض. أمّا الأمّ، فاستغرقت في نوم عميق. خيّم الهدوء في ذلك اليوم، وغمر ضوء الشمس الدافئ الفناء.

فجأة اخترقت صرخة الهواء. فالتفت الجميع للنظر إلى حديقة الخضار. في تلك اللحظة، انزلقت الهرّة العجوز من بين الملفوف، وقفزت على الحائط.

«ماذا حدث؟» شدّت الأمّ سلسلتها، لكنّها لم تستطع أن تتحرّر.

قفزت زيتونة إلى حديقة الخضار، إذ عرفت أنّ الصرخة صادرة عن بوبي. تبعها إخوتها عن قرب، فوجدوا بوبي راقداً في ثلم في التراب. قالت زيتونة وهي تلعق وجهه: «انهض»، لكنّ بوبي فتح عينيه بضعف واكتفى بالنظر إليها. تجعّد أنف زيتونة لا إرادياً، إذ فاحت من أخيها رائحة تشبه رائحة الهرّة العجوز. وكان ينزف من عنقه، نتيجة لجرح عميق.

«أمّي! أمّي!».

«بوبي مصاب!».

«لقد فعلتها الهرّة!».

انفجر الجراء بالبكاء، بينما راحت الأمّ تشدّ سلسلتها وهي تنبح. لم تستطع فعل شيء سوى القفز والجري حول وجارها. نادت قائلة: «العقوه! أحضروه إلى هنا».

لكنّ أيّاً الجراء لم يستطع العناية به كما تفعل هي. بدأت الجراء تتوتّر. «لا يستطيع النهوض!».

«أمّي، عليك المجيء!».

نادت الأمّ وهي تشدّ السلسلة: «بوبي، تعال إلى هنا!» مدّت لسانها وراحت تلهث. وكلّما قفزت، كانت السلسلة المعدنية تقعقع والوجار يهتزّ، لكنّها لم تستطع تحريكه، لأنّه مثبّت بالأرض.

تنهّد بوبي وهو يئنّ ألماً، ثمّ سالت الدموع على وجهه،

وأخيراً، أغمض عينيه، وتوقّف تماماً عن الحركة.

نظرت الأمّ إلى السماء وعوت حزناً.

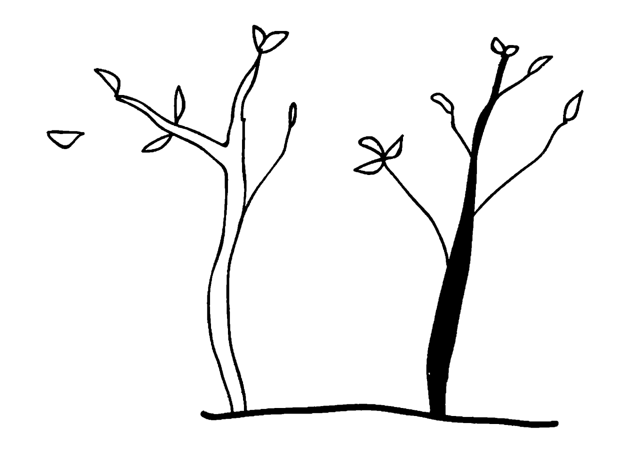
ألقت زيتونة نظرة إلى أعلى الحائط، وامتلأت عيناها بالدموع. كانت الهرّة العجوز مكوّرة بلا مبالاة، تلعق شفتيها بلسانها الطويل.

صاحت زيتونة: «كم أنت شرّيرة!».

سألتها الهرّة بتكاسل: «ولماذا يكون هذا خطأي؟ أنا لم أقرّر أن أتأذّى وأبدأ بإطلاق رائحة كريهة». ثمّ وقفت ببطء ومشت ذهاباً وإياباً على طول الحائط. بدت مستعدّة لفعل شيء آخر لبوبي، وكانت حركتها تسبّب لزيتونة الدوار.

عوت الأمّ مجدّداً، بينما انتشرت موسيقى الكنيسة بلطف في جميع أنحاء القرية. كان ذلك المساء حزيناً. فبعد أن دُفن بوبي تحت شجرة الكاكي، جاءت إحدى النساء القاطنات في الجوار وأخذت جرواً مرقّطاً معها.





صديق لطيف

تساقطت الثلوج خلال الليل. استيقظت زيتونة باكراً وتجوّلت في المكان، مخلّفة آثارها على الثلوج التي دغدغت أسفل أقدامها بحيث لم تستطع المشي بشكل مستقيم. جابت حديقة الخضار المغطّاة بالثلوج وهي تضحك. شدا طائر عقعق في شجرة الكاكي التي تعرّت من أوراقها، وتردّد صوته عالياً وواضحاً. طار إلى الأسفل، واستقرّ أمام الوجار. نقر على وعاء طعام الكلاب الفارغ، ثمّ نظر حوله بكآبة، قبل أن يطير عائداً إلى أعلى الشجرة.

فُتحت النافذة، وأطلّ وجه الجدّ صيّاح مصحوباً بوجه طفل. كان حفيده دونغي، الذي وصل في وقت متأخّر من الليلة السابقة.

صفق دونغي قائلاً: «جدّي، انظر! إنّه الثلج!».

صفق الجدّ صيّاح هو الآخر قائلاً: «لقد تساقط بكثافة».

أسرع دونغي إلى الخارج، فأجفلَ عسليّة، التي كانت جاثمة أمام الباب، تلعب بحذاء صغير أخرجته من تحته.

صاح دونغي: «ماذا تفعلين، هذا لي!».

بدا الجزء العلوي من الحذاء ممضوغاً. وعلى الرغم من ابتعاد عسليّة عن الباب، إلّا أنّ الحذاء بقي في فمها.

ارتعشت شفة دونغي وهو يصيح: «حذائي».

فاقتربت عسليّة وهي تهزّ ذيلها.

احمرّ وجه دونغي، الذي جلس على الأرض وانفجر باكياً. فأخذت عسليّة تقفز، وتضع كفّيها الأماميّتَين بمرح على صدره.

صاح دونغي وهو يشدّ قبضتَيه الصغيرتين: «كيف استطعتِ فعل ذلك؟»، ثمّ دفع عسليّة، التي انبطحت أرضاً وهي تئنّ.

توقّفت زيتونة وفِلفل عن المرح. قال فِلفل وهو يضحك بانتصار: «كنت أعلم أنّ هذا سيحدث، أنتِ تستحقّين ذلك». لم تكن عسليّة قد تعرّضت للضرب من قبل. غير أنّها رمقت فِلفل، الذي حوّل انتباهه إلى القفص الذي كان يعضّه. اقتربت زيتونة من عسليّة بحذر، فقد أرادت مساعدتها. ربّما لو لعقت بوبي أكثر وتمكّنت من تهدئته، فما كان سيموت.

صاح دونغي وهو يضرب الأرض بقدمه الصغيرة: «أعيديه إليّ! أعيديه إليّ!».

خرج الكبار عندما سمعوا الجلبة. كان الجدّ صيّاح أوّلهم، تبعته والدة دونغي. ثمّ خرجت الجدّة من المطبخ، والمغرفة في يدها، ومن بعدها والد دونغي، تشانو، الذي بدا مترنّحاً.

رأى الجدّ الحذاء الممزّق، فاستدار ليرمق الجراء بقسوة. «أيّها الأوغاد». ثمّ توجّه إلى الفناء وأتى بمكنسة.

عندئذٍ خفضت عسليّة ذيلها وتراجعت إلى الخلف.

«اركضي!» ضربت زيتونة الأرض بكفّيها الأماميّتين. فانطلقت عسليّة تجري مسرعة، فيما طاردها الجدّ صيّاح، وهو

يؤرجح المكنسة. مرّت عسليّة بالقرب من الأواني الفخارية وهرعت إلى حديقة الخضار، ثمّ مرّرت جسدها من تحت البوابة، وهربت إلى الخارج.

عاد الجدّ صيّاح غاضباً، وأنفاسه تملأ الهواء. لوّح بالمكنسة فجأة نحو زيتونة قائلاً: «كيف أمكنك تمزيق حذاء جديد كهذا؟».

خدشت المكنسة الجروة الصغيرة التي فرّت هاربة. ما هذا الظلم! ففي النهاية، هي لم تفعل شيئاً. نظرت إلى الوراء، وشعرت بالحزن. كان الجدّ صيّاح لا يزال يلوح بالمكنسة.

قال دونغي وهو يشهق: «جدّي، لقد كانت عسليّة».

لم يعتذر الجدّ صيّاح من زيتونة. بدلاً من ذلك، بدأ يكنس الثلج من الفناء. تمتم مستاء: «من أين تعلمت هذه المغفّلة مضغ الأحذية؟».

لسع الألم ظهر زيتونة. فخفضت رأسها، ودخلت القفص. لم تعد تفهم شيئاً. في بعض الأحيان، كانت تشعر أنّ الجدّ صيّاح يحبّها، غير أنّه كان يعاملها في أحيان أخرى كمنبوذة. فتتجنّب الاقتراب منه عندما يصرخ في وجهها على هذا النحو.

بعد الإفطار، خرج الجدّ صيّاح لشراء حذاء جديد لدونغي. غير أنّه سرعان ما رجع خالي الوفاض، ذلك أنّ المحلّ كان مغلقاً يوم رأس السنة.

نظر الجدّ صيّاح إلى عسليّة، التي كانت تلعق حساء كعكة الأرزّ، وعاتبها قائلاً: «كيف يمكنك أن تأكلي بعد تمزيق حذاء دونغي الجديد؟». لكنّ عسليّة لم تتوقّف، فهي لا تتراجع إطلاقاً

عندما يتعلّق الأمر بالطعام.

كانت أمّ الجراء تمضغ قطعة عظم بسعادة، فهذه مكافأة نادرة. تمتمت قائلة: «هكذا هي الجراء، تخطئ قبل أن تتعلّم. علينا أن نشحذ أسناننا، فهذا ما نفعله منذ أجيال».

انتهت زيتونة من الأكل، واستلقت في الشمس. حاول فِلفل حملها على اللعب، لكنّها شعرت بالكآبة ولم تتزحزح. جاء دونغي، وقد دسّ قدميه الصغيرتين في حذاء جدّه الكبير المبطّن بالفراء، فتوتّرت لكنّها لم تبتعد.

قرفص دونغي بجانبها وقال: «أنت تشبهين الأسد». فحدّقت إلى الصبيّ الصغير، إلى عينيه البرّاقتين وخدّيه المتورّدَين. «كم أنّ وبرك طويل، طويل جدّاً!». ربّت على رأسها، ومرّر يده على ظهرها، ثمّ وكز قائمتها، ودفع الوبر الطويل بعيداً لينظر إلى عينيها. كانت رائحته حلوة. فتّش الصبيّ في جيبه، وأخرج شيئاً. «خذي، إنّها شوكولاتة».

اشتمّت زيتونة الشيء المستدير الصغير، ثمّ أكلته. لم تتذوّق هذا الطعم من قبل، لكنّه كان لذيذاً. راحت تلعق راحتي دونغي مراراً وتكراراً.

«كفى! أنت تدغدغينني!».

أحبّت زيتونة دونغي الضاحك. أحبّت صوته الجميل، على عكس صوت الجدّ صيّاح. كانت يده الصغيرة لطيفة وناعمة. أحضر دونغي مشطاً وسرّح وبر زيتونة الطويل. ثمّ جمع الوبر الذي يغطّي عينيها، وثبّته جانباً بملقط غسيل. دغدغتها ضربات

المشـط، لكنّهـا شـعرت بالبهجـة علـى الرغم من ذلـك. أخيراً، أغمضت عينيها واسترخت.

قال فِلفل، وهو يقفز من حولهما: «أريد أن تسرّح لي فرائي أنا أيضاً!».

شعرت عسليّة بالغيرة: «وأنا، وأنا أيضاً! أنا أفضل منها، فهي قذرة».

«نعم، ووحيدة أيضاً».

تدحرجا وقفزا، لكنّ دونغي كان يستمتع بوبر زيتونة الطويل، ولم يلتفت حتّى إلى الجروين الآخرين.

«دونغـي، هيّـا بنـا إلى المنـزل». حمله تشـانو، لأنّه لم يكن يملك حذاءً يعود به إلى البيت.

خرجـت والـدة دونغـي وبيديها عدّة أكيـاس، فلوت زيتونة رأسها. ألم تكن تحمل كيساً واحداً عند مجيئهم؟

تجهّم وجه الجدّ صيّاح. «لماذا تغادران باكراً؟ ما إن وصلتما حتّى خسـر حذاءه الجديد الجميل. انتظرا حتّى نشـتري له زوجاً جديداً غداً».

تساءلت زيتونة عمّا إذا كان أحد قد سمعه، إذ واصل والدا دونغـي طريقهمـا نحـو البوابة، وتبعتهما الجـدّة حاملة مزيداً من الأشـياء لهما. مشـى الجدّ خلفهم على مضض، لكنّه توقّف عند البوابة.

قالت والدة دونغي: «وداعاً، سنعود قريباً».

خرج تشـانو من البوابة من دون أن ينبس ببنت شـفة، بينما

لوّح دونغي من بين ذراعَي أبيه قائلاً: «وداعاً يا زيتونة!».

مشت زيتونة في أعقابهم. كانت تتمنّى لو يطيلوا البقاء، فقد أرادت أن تلعب مع دونغي. كانت تسير بين تشانو والجدّ صيّاح، لكن سرعان ما اضطرّت للتوقّف بعد أن أصبح دونغي وتشانو بعيدَين جدّاً.

تنهّد الجدّ صيّاح وتمتم في نفسه: «أمور كثيرة في الحياة تسير على عكس ما نشتهي. ما كان تشانو ليستمرّ في تجاهلنا لو كان أكثر نجاحاً، أنا متأكّد من ذلك. كان سيطلب منّا أن نذهب للعيش معه. من السخف أن نتوقّع شيئاً منه، في حين أنّنا لم نتمكّن من فعل أيّ شيء لهم». خفض كتفيه مضيفاً: «سيبدو المنزل خالياً. فهم لا يزوروننا كما ينبغي... كم سأفتقد إلى الصغير». حمل المكنسة وبدأ يكنس الفناء، على الرغم من أنّ الثلج قد ذاب.

توتّرت الكلبة الأمّ وبدأت تنبح. بعد لحظات، دخلت جارتهم عبر البوابة، فسألته ممازحة: «ماذا تفعل؟ هل تحاول أن تجعل فناءك نظيفاً كالثلج؟».

أسند الجدّ المكنسة على شجرة الكاكي، وبدا عليه الخجل.

ذهبت زيتونة لتشتمّ ساق الجارة. كانت تفوح بالرائحة الترابية للدواء الصيني الذي تستخدمته في المعالجة بالوخز بالإبر.

تفحّصت أخصّائية الوخز بالإبر عسليّة، ثمّ عرضت عليه قائلة: «بعني هذه، سأدفع لك ثمناً مرضياً».

رفعت عسليّة أذنيها ونبحت، وحذا فِلفِل حذوها، غير أنّ نباح الأمّ كان الأعلى بينها جميعاً. شعرت زيتونة بالذعر. بيع؟ هذا يعني أنّ عسليّة ستغادر المنزل ولن تعود أبداً.

هزّ الجدّ رأسه مجيباً: «كلّا، ليس هذه».

نظرت زيتونة إلى عسليّة باستغراب. كان الجدّ صيّاح يوبّخ عسليّة طوال الوقت. هل يحبّها على الرغم من كلّ شيء؟ من سيبيع إذاً؟ اقشعرّ وبر زيتونة.

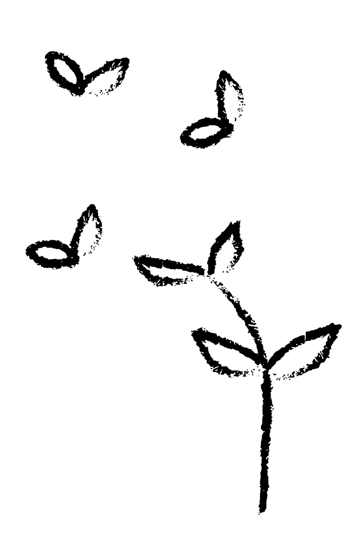
«آه، هل تربّيها بهدف التنسيل؟».

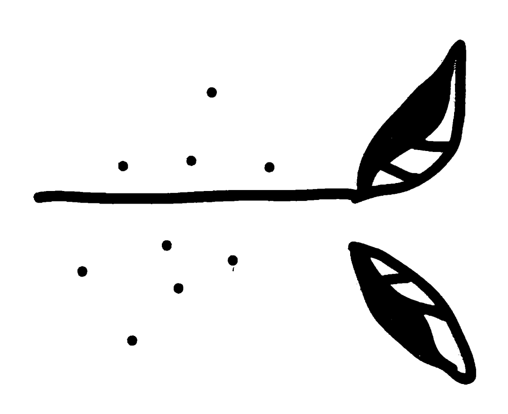
«بالطبع، فهي الأقوى بينها جميعاً».

حاولت الأخصّائيّة مجدّداً: «لكنّها الوحيدة التي أعجبتني من بين بقيّة الجراء، لستُ مهتمّة بغيرها».

«أنا آسف، هذه ليست للبيع، فقد أصبحت الأمّ كبيرة على الإنجاب». نظر الجدّ صيّاح إلى فِلفل ومن ثمّ إلى زيتونة، فانكمشت هذه الأخيرة خشية أن تُعرض للبيع، ثمّ استدارت ومشت ببطء إلى داخل القفص.

https://t.me/fantazynov





طعام مشبوه

قالـت الهـرّة مـن أعلى الحائط: «الصغـار يكبرون والعجائز يصيبهـم الإنهـاك. لا يمكنـك أن تفهمي معنى الاختباء إلاّ عندما يمرّ عليك الشتاء. فللشتاء أسرار كثيرة». هذه الأيّام، كانت تتنقّل ببطء وكان صوتها أضعف، كما بدت هزيلة أيضاً. ربّما كان الشتاء قاسياً عليها.

قالت زيتونة: «لا تفكّري حتّى في المرور من هنا».

على الرغم من أنّ الهرّة العجوز كانت جالسة على الحائط بأمـان، إلاّ أنّهـا أجفلـت. كانـت الجراء قد نمت قليلاً. فهسّـت، وضاقت عيناها، وتحوّلتا إلى شقّين: «أنتِ أيضاً فعل الشتاء فعله بك».

«فعل فعله بي؟».

«انظري إلى نفسك، لقد تغيّرتِ. لم أر كلباً مثلك قَطّ».

لـم تسـترح زيتونـة للطريقـة التـي أمالت بها الهـرّة العجوز رأسـها. مـا الـذي يمكـن أن يكون الشـتاء قد فعل بهـا؟ فأمّها لم تقل لها شيئاً، علماً أنّها لم تكن تحبّ أن تقترب منها زيتونة.

نـادت الهـرّة العجـوز الأمّ قائلة: «أخبرينـي، من يكون والد زيتونة؟»

رمقت الأمّ الهرّة قائلة بحدّة: «كم أنتِ وقحة! إلامَ تلمحين؟».

ضحكت الهرّة العجوز. «لطالما استغربتُ وبر هذه الجروة الأسود والطويل. والآن، بدأ ينبت لها وبر أبيض! هل شاخَت حتّى قبل أن تكبر؟ لقد أصابتها لعنة الشتاء».

وبر أبيض؟ تفحّصت زيتونة نفسها، لتجد أنّ وبرها الطويل واللامع أصبح مكسوّاً بما يشبه الغبار. كانت تظنّ أنّ تجوالها في الشوارع هو السبب. هل كانت مخطئة؟

قالت الهرّة: «أنا متأكّدة من أنّ الشتاء قد فعل بك شيئاً».

سألتها زيتونة: «وماذا فعل؟».

لزمت الهرّة الصمت. «كلبة سخيفة! هل تريدينني أن أشرحها؟».

«لماذا لا تخبرينني؟ أنا متأكّدة من أنّ ما ستقولينه مجرّد هراء».

«كم أنت وقحة! أنتم الكلاب تنظرون إلى الأرض طوال اليوم، ولا يمكنكم فعل شيء حيال ذلك. لا يمكنكم رؤية الصورة الأكبر».

صرخت الأمّ قائلة: «اخرسي واغربي من هنا».

نزلت الهرّة العجوز إلى أسفل الحائط. تثاءبت، ثمّ قوّست ظهرها، وتمطّت. كانت أسنانها لا تزال حادّة، كما بدت رشيقة. «لا تغضبي. من الواضح أنّ الشتاء كان ثقيلاً عليك، ولن يتوقّف عند هذا الحدّ. الآن مرض سيّدك، واضطرّ للذهاب إلى المستشفى هذا الصباح. أنا أعرف كلّ ما يجري في الحيّ من

مكاني المشرِف هنا».

«اخرسي!». قفزت الأمّ واقفة، لكنّ السلسلة قعقعت محتجّة وشدّتها إلى الخلف.

نـادى صـوت من الجانـب الآخر للحائط. «بسبوسـة، حان وقت الطعام!».

قالت الهرّة العجوز: «بالفعل»، واختفت بابتسامة.

استلقت زيتونة تحت درّاجة الجدّ صيّاح وقد أزعجها كلام الهرّة. ما الذي فعله بها الشتاء؟ تفحّصت كفّيها الأماميّتين، لتجد أنّ ألواناً مختلفة اختلطت بالأسود. متى حدث ذلك؟ لعقت وبرها بالكامل، لكنّه كان كلّه بالمذاق نفسه. أخيراً، قرّرت الذهاب إلى أمّها. «أمّي، ماذا حدث لي؟».

أجابت الأمّ من دون أن تفتح عينيها: «لا تقلقي بشأن ذلك».

«أعتقد أنّني تغيّرت، ماذا فعل بي الشتاء؟».

«لا تشـغلي بالك بما قالته هرّة الأزقّة هذه. أنتِ كما أنتِ، لم يتغيّر فيكِ شيء».

«لكنّ وبري...».

عبست الأمّ، فصمتت زيتونة مؤقّتاً.

قالت أخيراً: «حسناً، أنت هكذا لأنّ أسلافنا كثُر».

لوت زيتونة رأسها متسائلة: «أسلافنا؟».

تنحنحـت أمّهـا مجيبـة: «كثـرة الأسـلاف تـؤدّي إلـى كثرة السـلالات. أنت لا تفهمين هذه الأمور بعد. أعتقد أنّك تشـبهين أسلافنا السابسال».

«إذاً، فقد كان فراؤهم –».

قالت الأمّ بحدّة: «طفلة حمقاء! الجدّ صيّاح في المستشفى. وعندما لا يكون المالك بخير، يُفترض بالأسرة أن تنتظر بصمت. هذا واجبنا». ثمّ أغمضت عينيها مجدّداً.

لم تعطها والدتها هذا القدر من الأجوبة من قبل. عرفت زيتونة أنها لا تستطيع الاستمرار في طرح الأسئلة. لذا، ما كان منها إلاّ أن تسلّلت من جديد تحت الدرّاجة وقد كست الكآبة ملامحها.

ظلّ الجدّ صيّاح مريضاً لعدّة أيام. لازمت الجدّة المنزل للعناية به، ولم تحصل الكلاب على طعام سوى الأرزّ. لم يكنس الجدّ الفناء كعادته في الصباح، وبقيت الدرّاجة في مكانها. كما أنّه لم يعتنِ بالأزهار أو بحديقة الخضار، التي بقي جزء منها بلا حراثة.

كلب سابسال. لكنّ وبرها لك يكن كذلك في السابق. تذكّرت الجدّ صيّاح يقول إنّه يشعر أنّ صحّته لم تعد كالسابق، ثمّ أصابه المرض. نظرت زيتونة إلى سروال دونغي المعلّق على حبل الغسيل. كان الصبيّ الصغير قد زار المنزل قبل بضعة أيّام. جاء ابن الجدّ صيّاح وابنته مع عائلتيهما لزيارة أبيهما المريض، فلم يلعب دونغي إلّا مع زيتونة. رشّ الماء وركض في الفناء وحديقة الخضار. وكان سيواصل اللعب لو لم تخرج والدته لتوبيخه لأنّه بلّل سرواله. وعندما عاد دونغي إلى بيته، كان يرتدي الحذاء الأحمر الجديد الذي اشتراه له الجدّ صيّاح. فبعد

أن أحضر الجدّ الحذاء الجديد إلى المنزل، وضعه فوق خزانة الأحذية تحسّباً، في حال قرّرت عسليّة مضغه. أخذ الجدّ صيّاح يدندن، حاملاً حذاء في كلّ يد، ورقص كما لو كان يحمل الصبيّ نفسَه. لكن عندما دخلت الجدّة، توقّف على الفور، وتظاهر بأنّه يفعل شيئاً آخر.

تذمّر فِلفل قائلاً: «أنا جائع، أين الجميع؟».

«وأنا أتضوّر جوعاً! لم نأكل شيئاً طوال اليوم!». لعقت عسليّة الوعاء الفارغ، حتّى وعاء الماء كان فارغاً.

سأل فِلفل بحزن: «أمّي، متى ستعود الجدّة؟».

لم تفتح أمّهم عينيها، بل واصلت إغفاءتها كالعادة. هل فعل الشتاء فعله بها هي الأخرى؟ مشت زيتونة نحو البوابة بشيء من الحيرة. كانت تشتمّ رائحة شيء ما. تذكّرت تلك الرائحة بشكل غامض، فارتفعت أذناها قبل أن تدسّ أنفها في الفجوة التي تخترق البوابة وتستنشق الهواء.

أصبحت الرائحة أقوى. تناهى إليها فجأة صوت درّاجة، فنظرت خلفها، إلى الدرّاجة المركونة في الفناء. لم يكن ذاك صوتَ درّاجة الجدّ صيّاح.

اشتمّت عسليّة الرائحة هي الأخرى. ثمّ ما لبث أن جاء فِلفل أيضاً، واصغى معهما بانتباه.

صرخت عسليّة: «طعام!».

نبح فِلفل، ففتحت الأمّ عينيها ووقفت ببطء.

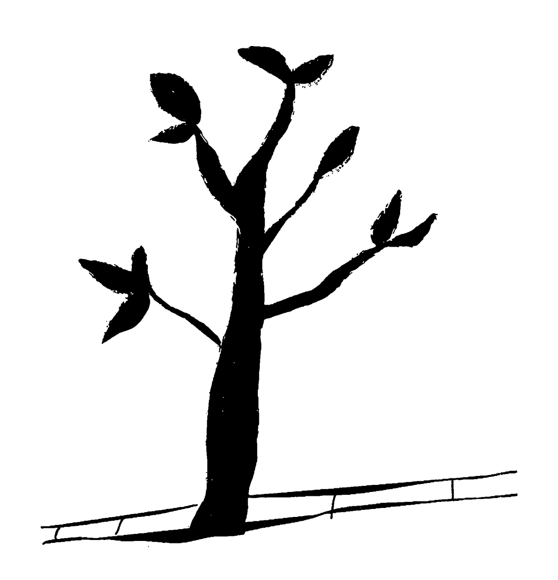
بدأ رأس زيتونة بنبض، وضاق صدرها. لقد سمعت هذا

الصـوت مـن قبـل، صـوت درّاجة غيـر مألوفة تمرّ أمـام البوابة. نبحت عليها في كلّ مرة، ولكن كان ثمّة شيء مختلف اليوم.

توقّفت الدرّاجة في الخارج، ثمّ سـمعت زيتونة وقع خطى - خطـى غيـر مألوفـة، وازدادت الرائحـة حدّة. «مـا هذا؟ رائحته كريهة!». أخذت زيتونة تروح وتجيء، وقلقها يتعاظم.

استنشـق فِلفـل وعسـليّة الهـواء، وبـدا عليهمـا شـيء مـن الاضطـراب. أمّـا الأمّ، فلعقـت فمهـا وشـدّت بسلسـلتها، التـي ارتطمـت بالوجـار وقعقعت. ظلّت الرائحـة والخطوات تقترب، فيما أخذت زيتونة تروح وتجيء بشكل أسرع، وبدأ فِلفل وعسليّة يقفـزان. وفـي أثنـاء ذلك، اسـتمرّت الأمّ بشـدّ السلسـلة. وسـط الرائحة غير المألوفة، انبعثت رائحة طعام.

أخيراً، طار شيء ما من فوق الحائط، وهبط أمام وجار الأمّ تماماً. كانت قطعة لحم.



إلى البيت، وحيدة

اشتمّت زيتونة اللحم وتراجعت خطوة إلى الخلف. «لا تبدو رائحته طيّبة». لكنّ لعابها بدأ يسيل أساساً. كادت أن تنقضّ على الطعام، لكنّها أمسكت نفسها. فقد اشتمّت هذه الرائحة الغريبة من قبل، الأمر الذي جعل رأسها ينبض ووبرها يقشعرّ.

زمجرت الأمّ واشتمّت اللحم. أخذ كلّ من فِلفل وعسليّة يجريان حول أمّهما، لكنّهما لم يجرؤا على اختطاف قضمة. اشتمّت الأمّ اللحم ووكزته قائلة: «ثمّة رائحة كريهة تفوح منه، أليس كذلك؟ أهو فاسد؟». اقترب منها فِلفل وعسليّة، فحدّقت إليهما الأمّ لإبقائهما بعيداً.

تذمّر فِلفل قائلاً: «أمّي، نحن جائعون!».

أنّت عسليّة: «أريد أن آكل الآن! أنا جائعة!».

كانت جميع الكلاب تضوّر جوعاً، وعلى شفير الانهيار. فهي لم تحصل على رشفة ماء منذ أن هُرع الجدّ صيّاح والجدّة خارج المنزل في ذلك الصباح.

«أعلم، أعلم. نحن لسنا في وضع يسمح لنا بأن نكون نيّقين». وما كان منها إلّا أن تناولت قضمة.

ضربت زيتونة الأرض بكفّيها ونبحت قائلة: أمّي، كلّا!».

فتجاهلتها الأمّ، ومزّقت قطعة من اللحم.

ازدرت زيتونة لعابها. كانت جائعة للغاية بحيث تشنّجت معدتها.

«أريد بعضاً منه!» أمسك فِلفل وعسليّة باللحم من طرفين متقابلين، وبدءا يشدّان به وهما يزمجران. أخذت زيتونة تروح وتجيء حولهم بقلق. كانت جائعة للغاية ولعابها يسيل بغزارة، لكنّ الرائحة الكريهة سبّبت لها ألماً في رأسها.

التهمت عائلتها قطعة اللحم عن بكرة أبيها. غير أنّها لم تسدّ رمق الكلاب، التي واصلت شمّ الأرض. اشتمّت زيتونة الأرض معهم، و لعابها لا يزال يسيل. كان يجدر بها أن تتناول قضمة، فقد كان الجميع بخير في النهاية. قرقرت معدتها. فقط لو أنّها تناولت قضمة واحدة! شعرت بالضعف وهي تراقب عائلتها تقفز في الفناء بطاقة متجدّدة. كانت شكوكها غير مبرّرة، وبذلك فوّتت على نفسها تناول بعض الطعام. شعرت بالدوار، فعادت إلى الدرّاجة، وتكوّرت تحتها. كان عليها تناول قضمة. ابتلعت زيتونة اللعاب الذي تجمّع في فمها، وأغمضت عينيها. بإمكانها أن تنام على الأقلّ، على أمل أن يكون الظلام قد حلّ عندما تستيقظ، وتكون الجدّة قد عادت، فتعطيهم عندئذٍ بعضاً من حساء الحبوب والأرزّ. هزّت رأسها. لا ينبغي لها أن تفكّر في الطعام، بل عليها أن تحاول النوم وحسب.

صدر صرير عن البوّابة وهي تُفتح.

رفعت زيتونة رأسها باستغراب.

رأت رجلاً يدخل منها وهو يدفع درّاجة كبيرة، غير أنّه لم يكن الجدّ صيّاح.

نبحت زيتونة: «من أنت؟ أمّي! إنّه غريب!».

لم يتحرّك أحد من مكانه. لم يرفع أحد رأسه أو يصدر صوتاً. لقد حلّ بهم أمر سيّئ. ركضت زيتونة إلى أمّها ووكزتها، لكنّها لم تتحرّك. كان الجميع يغطّون في نوم عميق كما لو أنّهم في منتصف الليل، حتى إنّهم كانوا يشخرون. تراجعت زيتونة وهي تنبح بملء رئتيها.

قال الغريب: «ألم تأكل تلك الكلبة من اللحم؟».

ذاك الصوت! نبحت زيتونة، واقشعرّ الوبر الذي يغطّي عنقها. فقد ذكّرها الصوت بحذاء قديم محترق بالنار. سبّبت لها تلك الرائحة صداعاً عندما أُخذ شقيقها المرقّط. لكنّ الجدّ صيّاح كان حاضراً في ذلك اليوم، فماذا يفعل هذا الرجل هنا الآن؟

نبحت زيتونة: «اخرج من هنا! لا أحد في المنزل!».

تمتم الدخيل في نفسه: «تبّاً، لن أتمكّن من أخذها بهدوء». أسند درّاجته، وألقى نظرة على زيتونة وهو يحمل قفصاً سلكياً صغيراً كان موضوعاً على ظهر الدرّاجة.

نبحت زيتونة مراراً، ثمّ راحت تقفز وتسبّب جلبة، لكنّ الغريب لم يخف منها. فتح القفص، ووضع أمّها في الداخل. كانت الأمّ مرتخية تماماً.

صاحت زيتونة: «توقّف! ماذا تفعل؟».

«إنّها هزيلة جدّاً ومسنّة، لن تساوي الكثير، لكن أتمنّى أن أحصل على سعر جيّد لقاء الجراء، على الأقلّ». كان الغريب يتنقّل بحرّية تامّة، كما لو أنّه يعرف أنّ المنزل خالٍ. حمل عسليّة ووضعها في القفص.

انقضّت عليه زيتونة وهي تنبح، وعضّت ساعده.

صفعها الغريب على رأسها، وصرخ قائلاً: «آخ! أيّتها العفريتة-»

سقطت إلى الخلف، لكنّها سرعان ما قفزت وانقضّت عليه مجدّداً.

حمل الرجل السلسلة التي كانت تقيّد الأمّ. «أنت مذهلة! لا شكّ في أنّك تملكين دم سابسال شرساً في عروقك. حسناً، أنت آتية معي حتماً».

نبحت زيتونة مراراً، على أمل أن يسرع الجدّ صيّاح بالعودة. لوّح الغريب بالسلسلة لإبعاد زيتونة، ثمّ حمل فِلفل من عنقه. جرّ الكلبَ خلفه، وكان جسده مرتخياً تماماً بحيث بدا مثيراً للشفقة.

انقضّت زيتونة على الرجل، لكنّه كان أسرع منها، فركلها وسقطت جانباً. والآن أصبحت كلّ عائلتها حبيسة القفص الصغير.

صاحت زيتونة : «أمّي! استيقظي! افتحي عينيك!».

اقترب منها الرجل وهو يجرّ السلسلة على الأرض، فشعرت أنّ القعقعة تخترق قلبها. اشتعل جسدها غضباً، ونبض قلبها بقوّة.

«تعالي أيّتها الصغيرة، أنت كلبة طيّبة». ابتسم الغريب كاشفاً عن أسنانٍ صفراء.

خفضت زيتونة جسدها، في إشارة انهزام، ثمّ انقضّت عليه فجأة. عضّت كاحل الرجل من دون أن تفلته، فصاح وسقط على مؤخّرته. ضربها مجدّداً، فشعرت أنّ رأسها على وشك أن ينفجر، غير أنّها لم تفلت قبضتها. فما كان من الرجل إلّا أن فتح فكّيها بيديه الاثنتين.

أتى صوت من المنزل المجاور.

سارت زيتونة في الفناء متعثّرة والدم يسيل على وجهها.

وقفت أخيراً وهي ترتجف، ونظرت إلى الرجل.

«هذا سُخف». نهض الرجل وسار إلى درّاجته وهو يعرج. تقدّمت زيتونة خطوة، لكنّ العالم أخذ يدور من حولها، فانهارت أرضاً.

نهضت من دون اتّزان، لكنّ الرجل كان يقود درّاجته إلى الخارج.

«كلّا!». انفجرت باكية، وراحت تجري خلفه.

كان قد صعد على درّاجته وأسرع عبر الزقاق الضيّق على طول الأسوار. فركضت خلفه مذعورة، وقد نسيت صداعها والدم الذي يسيل على وجهها.

أسرعت خلفه وهي تصرخ: «توقّف أيّها اللصّ! أطلق سراحهم!».

كانت الدرّاجة سريعة بحيث لم تستطع اللحاق بها. ركضت

عبر الزقاق الضيّق وعبرت الشارع، وقلبها ينبض في حلقها، حتّى شعرت بضيق في صدرها. تمكّنت أخيراً من اللحاق بإطارات الدرّاجة على التلّ بالقرب من السدّ.

ترنّحت الدرّاجة، فصاح الرجل: «كفى، أيّتها العفريتة-»

أخذت زيتونة تركض بجانب الدرّاجة وغرزت أسنانها في قدم الرجل. حاول أن ينفضها، ولكنّها أطبقت فكّيها بقوّة. ترنّحت الدرّاجة، لكنّها واصلت طريقها. أخيراً، انتُزع حذاء الغريب. اعتقدت زيتونة أنّها مزّقت قدمه، لكنّ الألم استبدّ فجأة بجنبها. كان قد ركلها مجدّداً.

«أيّتها الحقيرة!».

أنّت زيتونة وسقطت عن السدّ في الجدول، وتناثر الرذاذ حولها. كانت المياه باردة، بسبب الثلوج التي تساقطت في الصباح. ابتلّت زيتونة وداست في الماء. شعرت أنّها تتجلّد حتّى العظم وأنّ جسدها يتجمّد. «النجدة!» سبحت بكلّ قوّاها، إلى أن وصلت إلى الأرض الجافّة. فأراحت رأسها على كومة من أعشاب الماء الجافّة وأغمضت عينيها لبرهة. كانت أسنانها تصطكّ من شدّة البرد. أمّا الرجل ودرّاجته، فقد غابا تماماً عن النظر. وحده الظلام والهواء البارد أحاطا بها. مشت بصعوبة إلى الطريق ونفضت الماء عن وبرها، ولكنّها ظلّت مبتلّة. فلسع النسيم البارد جلدها.

رأت الحذاء القديم الذي انتزعته من قدم الرجل، فصاحت وهي ترتجف: «كيف حدث ذلك؟». لم يعد ثمّة شيء يمكنها

فعله هنا، عليها العودة إلى المنزل. فحملت الحذاء بفمها، واستدارت عائدة. ربّما يعود الباقون بطريقة ما. إذا استيقظت أمّها في القفص، فسيجنّ جنونها، وهي تصبح مرعبة عندما تغضب. يستحيل أن تترك ذاك المحتال يأخذهم جميعاً هكذا. مشت عائدة إلى المنزل، وبدأ الجليد يتكوّن على فرائها الطويل وهي تمشي، وذيلها متدلٍّ خلفها. لا شكّ أنّ هذا هو ما تحدّثت عنه الهرّة العجوز. هذا هو التغيير الرهيب الذي يخبّئه لها الشتاء. لماذا يفعل الشتاء بها ذلك؟ هل يكرهها؟ انعطفت زيتونة في الزقاق، ووصلت إلى الطريق الضيّق على طول الحائط. مشت ببطء، ورفعت رأسها للنظر إلى آخر الزقاق. لم تستطع سماع أيّ صوت. فتشنّج حلقها، وسالت الدموع الحارّة من عينيها.

أخيراً، رأت الجدّ صيّاح واقفاً كالظلّ أمام البوّابة. فصدر أنين من بين أسنانها التي لا تزال مطبقة على الحذاء القديم.

«زيتونة؟». كان صوت الجدّ صيّاح يرتجف.

اقتربت منه وهي تعرج. وعندما انحنى وفتح ذراعيه، ألقت بنفسها في حضنه.

«ما هذا؟». نظر إليها وفتح فمها. حدّق إلى الحذاء القديم، وتشنّج وجهه غضباً، ثمّ تأمّل زيتونة وفرائها المتجمّد والحذاء القديم. أخيراً، عانقها بلطف، وصدر أنين عميق من جسده المرتعش.





لم أقابل أحداً مثلك من قبل

مع أنّ زيتونة كبرت تماماً الآن، إلّا أنّ الجدّ صيّاح حذّرها قائلاً: «لا تبتعدي»، علماً أنّه كان يزداد تذمّراً بشكل ملحوظ. فقد أرادت زيتونة أن تذهب في نزهات وتتبع رنين أجراس الكنيسة، في حين أراد الجدّ صيّاح إبقاءها محتجزة. فكان يقفل البوّابة من الخارج، وفي إحدى المرّات، حاول أن يقيّدها بسلسلة أمّها. فانتفضت زيتونة ورفضت، ولم يصرّ الجدّ يومذاك. ففي النهاية، سُرقت الكلاب بينما كانت الأمّ مقيّدة. «كوني حذرة، مفهوم؟ ابقي في المنزل». خرج الجدّ صيّاح من البوّابة، وأقفلها خلفه.

ذهبت زيتونة إلى البوّابة وراقبته وهو يغادر، بينما داهمها إحساس بالوحدة.

قالت الهرّة العجوز من أعلى الحائط: «إذاً، أنت تريدين الخروج، هاه؟». في الآونة الأخيرة، لم تكن الهرّة تتصرّف كعادتها، حتّى إنّها بالأمس زلّت وسقطت عن الحائط. «يقلق الكبار بشأن كلّ صغيرة وكبيرة، في حين أنّ الشباب لا يوقفهم شيء».

قالت زيتونة مقلّدة أمّها: «اخرسي!». الآن بعد أن بقيت بمفردها، أصبحت حراسة المنزل من مسؤوليتها، حتّى عودة

أمّها وإخوتها. لم ترغب في الإصغاء إلى ألغاز الهرّة. فمع أنّ الهرّة العجوز تتباهى بعمق معرفتها، إلّا أنّ أيّاً ممّا تقوله لا يبدو منطقياً لزيتونة.

نظرت إلى الحذاء القديم الذي ربطه الجدّ صيّاح بأعلى القفص. لن تنسى ما حدث أبداً. وعندما يعود الجميع إلى المنزل، ستخبرهم بقصّة ذلك الحذاء المعلّق هناك. غفت قليلاً، لكنّها رفعت رأسها عندما سمعت الموسيقى المنبعثة من الكنيسة. وصلت الأنغام إلى الفناء الهادئ، ودغدغت أذنيها، وحثّتها هامسة على المجيء. فنظرت حولها. أين الهرّة العجوز؟ كان كلب أخصّائية الوخز بالإبر يئنّ بصوت خافت. فهو مقيّد دائماً لأنّه يميل إلى التجوّل والتسبّب بالمتاعب. بالمقابل، لم يعد يسترق النظر كثيراً إلى الفناء لإزعاجها. فقد أراد مرّة أن يدردش معها، لكنّها شعرت أنّه قد يسبّب لها المشاكل. انبطحت أرضاً، وزحفت من تحت البوّابة. كان الجدّ صيّاح يعتقد أنّ إقفال البوّابة كافٍ، لكنّه لم يدرك أنّها تستطيع الخروج من الفناء بهذا الشكل. لم تكن تتأخّر إطلاقاً في نزهاتها، إذ شعرت أنّ الجدّ يقلق بشأن ترك المنزل خالياً بعد أن سُرقت عائلتها.

كانت الموسيقى تناديها. فاتّجهت نحو الكنيسة، وهي تعلّم الأرض. في البداية، قلّدت ما اعتادت عسليّة فعله، لكنّها أصبحت عادة لديها، أي طريقتها في إنذار الكلاب الأخرى بالبقاء بعيدة، لا سيّما ذلك الكلب السخيف الذي يعيش لدى أخصّائية الوخز

بالإبر. قرّرت اليوم تجنّب المرور من أمام ذلك المنزل. فأخذها هذا الطريق نحو الجادة والسدّ، وذكّرها ذاك المكان بما حدث مع عائلتها، بحيث اقشعرّ وبرها وضاق صدرها.

مشت زيتونة على طول الجدول، مصغية إلى الموسيقى. راحت تدندن وهي تسير في البراري وفي حقول الأرزّ، مروراً بمبنى البلدية والمنزل الذي تعيش فيه الخنازير. خلف متجر الحيّ، وصلت إلى تقاطع ضيّق، فتوقّفت للحظة، إذ لم يسبق لها أن ابتعدت أكثر من ذلك بمفردها. كانت قد ذهبت إلى متجر درّاجات الجدّ صيّاح بضع مرّات مع الجدّة، لكنّها المرّات الوحيدة التي غامرت فيها بعيداً عن المكان الذي تقف فيه الآن.

اختارت طريقاً إلى اليمين، اصطفّت المنازل على جانبية. خرجت منه إلى تلّ تغطّيه أشجار الصنوبر بكثافة. خلفه، كانت تقع الكنيسة، فاقتربت ببطء. كانت الموسيقى تنبعث من هناك، ولكن من الذي يصدرها؟ شعرت زيتونة بالتوتّر، إذ وجدت نفسها محاطة بجميع أشكال الروائح والأصوات الغريبة. أخيراً توقّفت الموسيقى، فنظرت حولها. هذا ما يحدث دائماً، دائماً تتوقّف الموسيقى. لمَ توقّفَت يا ترى؟

«مرحباً، من صاحبة الوبر الطويل؟».

استدارت زيتونة، لتجد أمامها كلباً هزيلاً مرقّطاً ذا قوائم طويلة، ابتسم وهو يقترب منها ويشتمّها. «ما اسمك؟ أين تعيشين؟ تبدين لطيفة».

سيكون من الأفضل لها أن ترحل حالاً، فهي لم تأت إلى

هنا لتكوين صداقات، لا سيّما مع كلب مزعج كهذا. استدارت لتعود على أعقابها.

زمجر كلب آخر، وسدّ طريقها قائلاً: «مهلاً، مهلاً!» كان رأسه مسطّحاً وقوائمه قصيرة. تراجعت زيتونة إلى الخلف.

انضمّ إليهم كلب بنّي شريد، فراؤه خشن، والنعاس بادٍ في عينيه. قال وهو يكشّر عن أسنانه: «أنت على أرضنا».

تقدّم الكلب ذو الرأس المسطّح خطوة إلى الأمام قائلاً: «وتعلّمين الأرض أيضاً. أنت مجرّد أنثى، وبفعلتك هذه، فإنّك تسعين وراء المتاعب».

قال الكلب البنّي: «يجب أن نلقّنها درساً».

اقترب الكلب ذو الرأس المسطّح وهو يشتمّ، ثمّ التفّ خلف زيتونة يتفحّصها. فانحرفت مبتعدة باتّجاه المنزل.

تشنّجت كتفا الكلب البنّي واقترب منها، وكذلك فعل الكلب المرقّط. لكن من الواضح أنّ الكلب المرقّط لم يكن واثقاً من نفسه بقدر الكلبين الآخرَين. إذ وقف خلف أحدهما ومن ثمّ خلف الكلب الآخر، من دون أن يبعد نظره عنها.

شعرت زيتونة بعضلاتها تتوتّر. سيكون عليها القتال إذا ما تعرّضت للهجوم، فمن المستحيل أن تصل إلى المنزل إذا اعتقدوا أنّها جبانة. قالت بلطف وأدب: «أنا لا أزعجكم»، ثمّ همّت بالرحيل.

قال الكلب المرقّط ساخراً: «أنت لا تفهمين، أليس كذلك؟ مجرّد وجودك هنا يزعجنا».

زمجر الكلب ذو الرأس المسطّح مجدّداً وقال: «لدينا قواعد تلقين هنا، لا يمكنك المجيء والذهاب كما يحلو لك»، ثمّ خفض جسده وحرّك عضلات صدره العريض وقوائمه.

وسرعان ما حذا الكلب البنّي حذوه.

ماذا كانت لتفعل والدتها؟ ماذا كانت لتفعل عسليّة؟ كانت تنوي القتال إذا ما اضطرّت لذلك، لكنّها أرادت الرحيل من دون إحداث مشاكل. تسارعت أنفاسها وتصلّب جسدها.

قفز الكلب البنّي باتّجاهها، فأغمضت عينيها بشدّة، وآلمها كتفها. بعد ذلك عادت إلى رشدها، فخفضت جذعها، وثنت جسدها كالقوس. زمجرت قائلة: «لا تلمسني!».

لقد هُزمَت بسهولة عندما جاء اللصّ واختطف عائلتها بأكملها. غير أنّها لن تسمح بأن تتعرّض لتجربة كهذه مجدّداً، فهي لم تعد جروة صغيرة. نظرت إلى كلّ من الكلاب الثلاثة المحيطة بها. كان عليها أن تفوز ضدّ أحدهم، ويفضّل أن يكون القائد. فثنت قوائمها، وقرّرت استهداف الكلب ذي الرأس المسطّح. فقد بدا الأقوى بين الثلاثة والأكثر ثقة بنفسه. تظاهرت أنّها تتراجع إلى الخلف، ثمّ انقضّت عليه، وعضّته في عنقه. فاندفع إليها الكلبان الآخران.

تجمّع أولاد صغار وهم يهتفون: «قتال كلاب! ثمّة دماء!».

«هاجميه! هاجميه!».

«هذا غير عادل، الكلبة ذات الوبر الطويل تقاتل وحدها ضدّهم جميعاً!».

«إنّها كلبة صاحب متجر الخردة، علينا إخبار الرجل حالاً!».

حمل بعض الأولاد عصيّاً لمحاولة فصل الكلاب عن بعضها، لكنّ معظمهم وقف يتفرّج برعب. تدحرجت الكلاب الأربعة كما لو كانت واحداً، وشعرت زيتونة أنّ عظامها تُسحق. كانت قد أصيب بعضّات عدّة. غير أنّها نجت أخيراً من الكلاب الأخرى، وغرزت أسنانها بظهر الكلب ذي الرأس المسطّح، الذي راح يتلوّى ألماً.

فجأة، تراجعت الكلاب. فأفلتت زيتونة الكلب من بين فكّيها، وقد بدت عليها الحيرة للحظات. كان بعض الناس قد خلعوا قمصانهم، وراحوا يلوّحون بها لفصل الكلاب، لكنّها ظنّت أنّها سمعت كلباً يصرخ بصوت آمر: «توقّفوا حالاً!» فنظرت حولها، وهي تلهث.

«قلت لكم ألّا تثيروا المشاكل!» لم يكن الصوت من نسج خيالها، بل كان عميقاً وواضحاً.

وقف الكلبان البنّي والمرقّط بانهزام. خفضا ذيليهما وانسلّا من بين الحشد، فيما تراجع الكلب ذو الرأس المسطّح وهو يزحف تقريباً. نظرت زيتونة من خلال الوبر الذي يغطّي عينيها، فرأت كلباً أبيض واقفاً بفخر وسط الحشد وقد وقف وبر عنقه بخشونة. لا بدّ أنّه قائد هذه المنطقة.

هتف أحد الحاضرين: «تلك الكلبة ذات الوبر الطويل مذهلة!».

«لقد نال ذاك الوغد عقابه».

غادرت زيتونة المكان ببطء، كانت تشعر بالألم في جميع أنحاء جسدها، لكنّها مضت في طريقها من دون أن تنظر إلى الوراء. كان منزلها بعيداً جدّاً. فجأة، ترقرقت الدموع في عينيها.

«هل أنت بخير؟».

استدارت زيتونة مستغربة. كان الكلب الأبيض قد لحق بها. فانخفضت فوراً في وضعيّة الهجوم مجدّداً. هل سيتحتّم عليها القتال؟ لكنّه كان ينظر إليها بشيء من القلق، وكان الوبر الذي يغطّي عنقه مسطّحاً. عندئذٍ، استرخت.

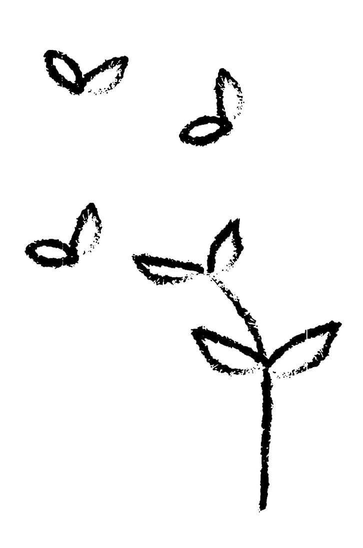
تابع قائلاً: «كان ذلك في غاية الخطورة. عليك تجنّبهم من الآن فصاعداً».

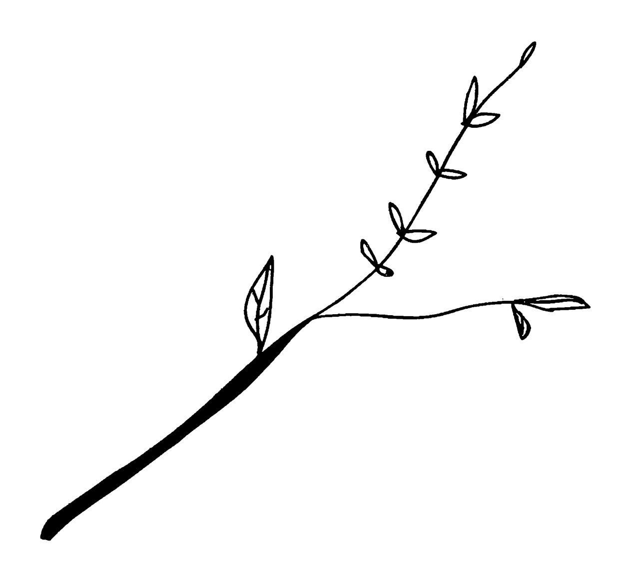
هزّت زيتونة كتفيها. كان عليها العودة إلى المنزل. لو أنّ أمّها وإخوتها كانوا هنا، لربّما لعقوا جراحها وجعلوها تشعر بالتحسّن.

قال الكلب الأبيض: «لم أقابل أحداً مثلك من قبل. لم أر قطّ أنثى تقاتل بهذه الشجاعة».

شعرت زيتونة بالحرج، لكنّ التعليق أثار غضبها أيضاً. ماذا يقصد بذلك؟ فكونها أنثى لا يعني أن تقف باستسلام وتتعرّض للضرب. في تلك اللحظة، شعرت برغبة في عضّه هو الآخر.

غير أنّ الكلب الأبيض اقترب منها، وبدأ يلعق جراحها بصمت.





خيانة

لعقت زيتونة الجرو الأسود.

«لا تفعلي يا زيتونة، لقد مات أساساً». دفع الجدّ صيّاح الجرو الصغير البارد بلطف بعيداً عنها.

جلست زيتونة بحزن بالغ. كان الأصغر والأضعف بين الأربعة، ولم يعش سوى ليومين.

قال الجدّ بتعاطفٍ: «إنّه يشبهك. أنا آسف لأنّ حياته كانت قصيرة».

خفضت زيتونة رأسها. ما الخطأ الذي ارتكبته؟ لقد نظّفته، وحرصت عليه لكي لا يتأذّى. فكلّما اقتربت منها بقيّة الجراء، كانت تتأكّد من أنّه لن يُسحق تحتها. لكنّه كان يرتجف طوال الوقت، ويتنفّس بضعف، كما كانت حركتهِ بطيئة. وأكثر ما أقلقها أنّ رائحته كانت غريبة. فرائحة بقيّة الجراء كانت حلوة، أمّا هو، فكان يفوح برائحة حادّة منذ البداية.

وضع الجدّ صيّاح أمامها وعاء من حساء الأعشاب البحرية.

«كلي، عليك أن تتغذّي جيّداً لمساعدة صغارك على النموّ».

إذا كان لن يعيش أكثر من ذلك، فلماذا ولد؟ حتّى إنّه لم يخطُ خطوة واحدة بعد. نظرت زيتونة إلى الجدّ صيّاح بحزن.

قال الجدّ: «هذا صعب عليك لأنّها ولادتك الأولى. الجراء تموت من وقت إلى آخر، وهذا أفضل. فماذا لو كبر وبقي عاجزاً عن فعل شيء؟

أنّت زيتونة بحزن وهي تتذكّر شقيقها الأصغر الذي مات في حديقة الخضار. هل كان صغيرها سيبقى دافئاً لوقت أطول لو أنّها لعقته قليلاً بعد؟

أشار الجدّ صيّاح إلى الحساء. «زيتونة، كفّي عن النحيب وتناولي الطعام!».

لعقت زيتونة يده المتصلّبة، فداعب عنقها برفق. ذكّرتها مداعباته أنّه على الرغم من اختفاء أحد الصغار، إلا أنّها تنعم بثلاثة آخرين، أحدهم أبيض والآخران رماديّان. نهضت ببطء. فسقطت عنها الجراء التي كانت ترضع، وصدر عنها أنين ضعيف.

خرج الجدّ صيّاح من القفص، وأغلق البوّابة المغطّاة بالبطانية خلفه. «كان قلقي بلا مبرّر!

فمن الواضح أنّ زيتونة أمّ جيّدة».

تناولت زيتونة حساءها وهي تفكّر في الكلب الأبيض. كان قد مضى وقت طويل على لقائها به. فقد انقضى الربيع، وكان الصيف الحارّ يشرف على نهايته. بعد ذلك اللقاء الأوّل، لم تره مرّة أخرى. كانت تفتقد إليه. سيكبر الجراء ليصبحوا وسيمين، تماماً أبيهم. بدا الجرو الأبيض تحديداً مثل أبيه تماماً، وصولاً إلى أذنيه المروّستين.

دسّت زيتونة أنفها في الوعاء وأكلت حتّى رأت القاع.

بعـد ذلـك، استلقت على جنبها، فيما تحسّسـت الجراء طريقها إلـى بطنهـا. حدّقـت إلى الجراء التي تتلـوّى حولها. ثلاثة كانت قليلة جدّاً. لو أنّ الجرو الأسود بقي حياً، لما شعرت بهذا القدر من الفراغ. مع ذلك، كانت تعلم أنّها ستشـعر بالسـلام في نهاية المطـاف. كيـف يمكـن لمثل هـذه الكائنات الصغيرة الهشّـة أن تتنفّس من تلقاء نفسـها؟ كان الدفـء ينبعث من كلّ منها أيضاً. للمرّة الأولى منذ اختطاف أمّها وأختها وأخيها، أصبحت لديها أسـرة خاصّـة بهـا. سـيقوم الجـدّ صيّـاح بدفـن جروها الأسـود تحت شجرة الكاكي. وهكذا، إذا لـم يستطع أن يكون صغيرَها، فسـيصبح سـماداً للفاكهة. أخذت نفسـاً عميقاً. على الرغم من أنّ القفص كان مغطّى بالبطّانيات، إلّا أنّها اسـتطاعت أن تشـتمّ رائحة كلّ شـيء في الخارج. كانت الهرّة العجوز هناك، وربّما كانت تتوق شوقاً لمعرفة ما يجري في القفص. هزّت زيتونة أنفها وابتسمت، وهي تشعر بالتفوّق. لم يكن بإمكان الهرّة العجوز أن تنجب صغاراً، رغم أنّها تتصرّف كما لو كانت تعرف كلّ شيء. نظرت زيتونة إلى الجراء. ستبقيهم في مأمن من الهرّة العجوز، ولن تسمح بحدوث شيء لهم. اقشعرّ وبرها لمجرّد التفكير في ما حدث لبوبي منذ مدّة طويلة. ولكن لم يكن ثمّة ما تخشاه في القفص، فقد حرص الجدّ على ألّا يزعجها أحد. كانت البطّانيات تمنحها الخصوصيّة. وكان هو الوحيد الذي يحضر لها الطعام. بالإضافة إلى ذلك، أبقى بالمصباح الكهربائي مضاءً طوال الليل لكي تتمكّن من رعاية صغارها.

بعد فترة وجيزة، فتحت الجراء أعينها. كان حجمها يكبر، وسرعان ما أصبحت قادرة على الخروج من القفص.

حذّرت زيتونة جراءها قائلة: «أيّها الصغار، لا تقتربوا من السياج. واحذروا من الهرّة التي تعيش في المنزل المجاور، فهي تبدو كبيرة في السنّ وغير مؤذية، لكنّها قادرة على كلّ شيء».

كانت الهرّة العجوز تبتسم ساخرة في كلّ مرّة متسائلة: «وماذا يعرفون؟».

* * *

حمل الطقس السيّئ مأساة معه. ففي يوم عاصف ملبّد بالسحب، كانت الجراء بأمان داخل القفص، بينما راحت شجرة المشمش الكبيرة بالقرب من الوجار تهتزّ وتتمايل، وكذلك شجرتا الكاميليا والكاكي في الحديقة. تطايرت الأوراق عن الأغصان، وتمايلت الأشجار بفعل الرياح. تجمّعت السحب السوداء في السماء، واهتزّت النوافذ، بينما قعقعت قطع القرميد التي تغطّي سقف الجدّ صيّاح منذرة بالسقوط.

تجمّعت الجراء على بعضها البعض وهي ترتجف وتئنّ. قال الثلاثة: «أنا خائف».

أخذت زيتونة تدخل وتخرج من وجارها وهي تنتظر خروج الجدّ صيّاح بفارغ الصبر. فمع كلّ هبّة رياح، كان السقف يعلو وينخفض. ارتجفت أوراق اليقطين التي تتسلّق الحائط، وصدر عنها حفيف، كما سقطت منها ثمرة قرع كبيرة.

نبحت زيتونة بقلق. فقد أدّى هبوب رياح مفاجئة إلى قلب

عدد كبير من قطع القرميد عن السطح. ارتفع السقف مثل ثعبان غاضب، وتطايرت قطع القرميد عنه لتهبط على منزل الجيران، وتتحطّم في الأرجاء.

تراجعت زيتونة إلى داخل وجارها وتكوّرت فيه. لم ترَ شيئاً كهذا يحدث من قبل. بدأ المطر يتساقط، وتشكّل جدول بالقرب من حديقة الأزهار. تجمّعت أوراق الشجر المتساقطة على طول المياه المتدفّقة وغمرت حديقة الخضار. وعندما بدأت قطرات المطر الكبيرة تهطل بغزارة على الوجار، غطّت رأسها بكفّيها الأماميّتين. أخيراً، هدأت الرياح، وعاد الجدّ صيّاح إلى المنزل. فرِحت زيتونة برؤيته، لكن لم يعد بإمكانه فعل شيء، لا بل تبلّل تماماً وهو يحاول الحفاظ على الجزء المتبقّي من السقف.

انتهت العاصفة بحلول الصباح، وخلّفت وراءها حالة من الفوضى. نظر الجدّ صيّاح حوله عابساً. بعد قليل، أتت جارتهم تشتكي من الأضرار التي لحقت بسقف منزلها بسبب قرميد الجدّ صيّاح. قالت: «ستنتهي المشكلة بمجرّد استبدال بعض قطع القرميد. ويمكنك أن تصلح سقفنا عندما تحضر شخصاً لإصلاح سقف منزلك».

تنهّد الجدّ صيّاح، ولكنّه أجاب بثقة: «بالتأكيد».

«شكراً لك، سيكون ذلك عظيماً».

بالنسبة إلى زيتونة، بدت الجارة تماماً مثل هرّتها، باردة بعض الشيء ومتطلّبة.

تذمّر الجدّ صيّاح بعد أن غادرت الجارة: «تبّاً، سيكون ذلك مكلفاً. أنا لم أسـدّد بعد كامل إيجار متجر الخردة، ولا يمكنني أن أطلب مسـاعدة تشـانو، فقد تحطّمت لافتة متجره نتيجة سـوء الطقس». راح يدخّن سيجارة تلو الأخرى، والعبوس يعلو وجهه، ثـمّ حـدّق مـن خـلال الدخان إلى الجراء وهـي تمرح في حديقة الخضار التي تعمّها الفوضى.

في اليوم التالي، وضع الجدّ صيّاح سلسلة حول رقبة زيتونة. أخذت تتراجع وتنبح، محاولة إخباره أنّها ستبقى بعيدة عن طريقه إذا تركهـا طليقـة، لكنّـه قيّدها إلى عمود. لم تكن سـعيدة بذلك، لكنّها تفهّمت. فهو يريد إبقاءها بعيدة بينما ينظّف الفناء.

فجأة، دخل رجل عبر البوّابة.

جحظت عينا زيتونة، وبدأت تنبح بشراسة. لقد كان اللصّ. اندفعت نحوه وهي تزمجر.

فأجفـل الرجـل، لكنّه اسـتعاد ابتسـامته الخدّاعـة. «يمكنني القول إنّ الجراء تنتمي إلى سلالة جيّدة».

سأله الجدّ صيّاح بشكل مباشر: «كم ستدفع لقاء الثلاثة؟».

حدّقت زيتونة إلى الجدّ، من دون أن تفهم شيئاً.

ابتسم الرجل بخبث وسأله: «ألن تبيع الكبيرة؟».

«كلّا، عليّ الاحتفاظ بها. فهي المنسّلة».

«الكلاب بحالة جيّدة، ولكنّها مجرّد جراء».

غاص قلب زيتونة. هل يقوم الجدّ صيّاح ببيع كلّ صغارها؟

قـال الجـدّ: «اسـمع يـا كيم، أنا أعرف الـكلاب. لا يمكنك

العثور على مثل هذه الجراء في أيّ مكان. وما كنت لأفعل ذلك لولا أنّني مضطرّ لإصلاح سقف منزلي».

كلّا، ليس صغارها! اندفعت زيتونة نحوهما، لكنّ السلسلة شدّتها بقوّة وهي تحاول أن تعضّ تاجر الكلاب. غرقت مخالبها في التراب، ولم تستطع الاقتراب منه، وأخذ فمها يرغي ويزبد.

لم يرفّ جفن لتاجر الكلاب، ولم ينظر الجدّ صيّاح إليها حتّى. كانت قادرة على تمزيق أيّ شخص يلمس صغارها.

ألقى تاجر الكلاب نظرة على زيتونة. «تلك الهجينة، تحفة حقيقية».

كيف يجرؤ! احترقت عينا زيتونة، وضاق صدرها. كيف يخونها الجدّ صيّاح بهذه الطريقة؟

حذّره الجدّ صيّاح قائلاً: «انتبه لكلامك، فالكلاب تفهم كلّ ما يقال».

ضحك تاجر الكلاب قائلاً. «حقّاً؟».

«ألا تعتقد أنّها تعلم أنّ صغارها ستؤخذ بعيداً؟ سأبيعها لك بسعر جيّد، لذا، دعنا ننهي الأمر بسرعة. أنا لست سعيداً بذلك أيضاً»، ثمّ ذهب الجدّ نحو القفص.

انفجرت الجراء بالبكاء، فيما راحت زيتونة تقفز وتشدّ سلسلتها. كان يجدر بها أن تعضّ تاجر الكلاب بشراسة أكبر عندما سنحت لها الفرصة. ما كان عليها أن تفلته من قبضتها حتّى يلفظ آخر أنفاسه.

تمتم تاجر الكلاب: «ما الجدوى من أخذ كلاب غير كبيرة

بمـا فيـه الكفايـة؟»، ولكنّه تبع الجدّ صيّاح مع ذلك. فجأة توقّف في مكانه عندما رأى الحذاء القديم معلّقاً على القفص. فنظر إلى زيتونة قائلاً: «بلى في الواقع، سآخذها. فأنا - أنا أعرف أنّها من سلالة جيّدة».



ساعدِ الجدّ صيّاح

كانت زيتونة مقيّدة وحبيسة في القفص. ومع أنّ وعاءها كان مليئاً بالطعام، إلّا أنّها لم تلمسه. أخذت تروح وتجيء على وقع قعقعة سلسلتها. لم تبعد نظرها عن الجدّ صيّاح، الذي كان مشغولاً بإصلاح السقف. كان قد استأجر رجالاً لإصلاح سقف الجارة، لكنّه يقوم بترميم سقفه بنفسه. زمجرت زيتونة، غير قادرة على مسامحته. كانت تريد صغارها. أصبح صوتها أجشاً من كثرة الصراخ والنباح، لكنّها لم تتوقّف عن ذلك.

مشت الهرّة العجوز ذهاباً وإياباً على أعلى الحائط. «هل تسمعين صوتك؟ أنت تبدين مخيفة حقّاً الآن. هذه سنّة الحياة، كما تعلمين. تودّعينهم، فيموتون، وتستمرّ الحياة. هذا ما عشنا عليه. ولم يسبق لي أن رأيت كلبة عاشت مع كلّ صغارها».

صرخت زيتونة: «اخرسي!».

«صدّقيني، لا جدوى من الصراخ. أنت تعرفين هذا العجوز، فالكلاب مصروف جيب بالنسبة إليه. لقد رحلوا يا زيتونة، ولن يعودوا أبداً، أبداً».

«قلت لك اخرسي!».

«ربّاه، أذناي! حسناً، افعلي ما يحلو لك، أنا أحاول المساعدة

وحسب. أحاول أن أكون جارة طيّبة، لكنّك ثقيلة الفهم أحياناً».
ثمّ قفزت عن الحائط.

هل فعل هذا الشتاء فعله بها مجدّداً؟ لم ترغب في الإصغاء إلى تلك العجوز الحمقاء، لكنّها تساءلت رغماً عنها لماذا جلب لها الشتاء كلّ هذه المصائب. واصلت زيتونة السير بالوتيرة نفسها وهي تتنفّس بصوت خشن. لو لم تكن مقيّدة وسجينة في هذا القفص، لانقضّت على الجدّ صيّاح وعضّته. فقد كان منحنياً وظهره إليها. كم تكرهه.

كان الجدّ مشغولاً بالتلحيم طوال الصباح لترميم السقف، وكانت رائحة المعدن تفوح منه أكثر من المعتاد. تطاير الشرر، وعلق الدخان الأزرق في الهواء. سمعت زيتونة الموسيقى الآتية من الكنيسة، وبدت لها بعيدة جدّاً. فآلمها قلبها. غمرها الحزن، وتذكّرت إحساسها عندما قابلت الكلب الأبيض. تذكّرت كيف نظرت أمّها إلى السماء وعوت عندما ماتت بوبي. وأدركت في تلك اللحظة كيف شعرت أمّها. فنظرت إلى السماء، وكما فعلت أمّها، أطلقت عواء طويلاً.

صرخ الجدّ صيّاح: «اخرسي، يا زيتونة!» غير أنّها تجاهلته، وأطلقت عواء أعلى وأطول. «اخرسي! الكلب الذي يصدر هذه الأصوات يجلب سوء الحظّ».

غير أنّ زيتونة لم تأبه له.

«أيّتها العفريتة-». وضع الجدّ صيّاح أدوات اللحام من يده، واعتدل واقفاً.

واصلـت زيتونـة عواءهـا بعنـاد. عجـوز غبـيّ، أعطـى كلّ صغارها لذلك اللصّ. كيف أمكنه فعل شيء كهذا؟

«لـم تدَعـي أحـداً ينام طوال الليل بسـبب نباحـك، لقد نفد صبـري حقّـاً». رفـع الجدّ صيّاح درع وجهـه إلى الأعلى وحدّق إليها.

لـم تكـن زيتونـة خائفة منه. حدّقت إليه وعـوت مجدّداً، إذ كانت تلك الطريقة الوحيدة لحمله على النظر إليها.

قال الجدّ صيّاح بحدّة: «تبّاً، قلت لك اخرسي! أنت تثيرين أعصابي».

أبت زيتونة أن تتوقّف. فقد كانت غاضبة جدّاً بسبب الظلم الذي لحق بها.

كان وجـه الجـدّ صيّـاح أحمر اللون من شـدّة الغضب وهو يسير نحوها. حمل المكنسة المُسندة إلى شجرة الكاكي. «كيف تجرؤين!». فتح القفص، ورفع المكنسة، ثمّ هوى بها على زيتونة. لم يسبق لها أن رأته يوماً بهذه الشراسة.

تجنّبـت زيتونـة الضربـات وهـي تنبح وتصرخ وتكشّـر عن أسنانها. كان قلبها ينبض بقوّة مع كلّ ضربة على ظهرها وجنبَيها، بينما راحت السلسلة تشدّ برقبتها. كان من الأفضل لها لو أخذها اللصّ مع أمّها وأخويها.

صـاح الجـدّ صيّـاح: «إنّـك تجلبيـن سـوء الحـظّ إلـى هذا المنزل!».

غير أنّها لم تستطع أن تغفر له.

حذّرها الجدّ صيّاح قائلاً: «عندما تتصرّف الكلاب بهذا الشكل، فإنّها تُقتل».

افعلها إذاً، هذا ما فكّرت فيه زيتونة بعدائيّة. أخيراً، قفزت عليه وعضّت ذراعه. صرخ وسقط على ركبتيه، ثمّ ألقى ذراعه حول عنقها، لكنّها لم تفتح فكّيها. راح يئنّ، ولو لم يخرج دونغي وأبوه إلى الفناء في تلك اللحظة، لكانت كسرت ذراعه.

«أبي!». ركض تشانو وأقحم عصا في فم زيتونة لتفتح فكّيها بالقوّة. نظرت إلى دونغي، الذي كان يحدّق إليها في حالة ذهول. فالتقت نظراتها بنظرات عينيه السوداوين المستديرتين، وامتلأت عيناها بالدموع.

أمسك تشانو زيتونة من عنقها وصاح بها قائلاً: «أيّتها الحقيرة! كيف أمكنك عضّ سيّدك؟».

أشار الجدّ إلى زيتونة وأنّ قائلاً: «اقطع بعض الوبر».

«ماذا؟ ولمِ؟».

«افعل وحسب».

احتجّ تشانو قائلاً: «آه، أبي، هذه مجرّد خرافات. علينا الذهاب إلى المستشفى».

«لا بأس. افعل ما أقول».

جادله تشانو: «ماذا لو التقط الجرح عدوى؟».

«لقد أخذَت كلّ حقنها، سأكون بخير».

صاح تشانو وهو يمسك بخطمها: «دونغي، اذهب وأحضر مقصّاً أو سكّيناً!».

وقـف دونغـي جامـداً يحـدّق إلى زيتونـة. كان الجدّ صيّاح منحنياً على السياج، يحتضن ساعده، وهو يتعرّق، ويراقبها.

صاح تشانو: «اذهب!».

أجفل دونغي، وركض إلى صندوق الأدوات. فتّش فيه، لكنّه عاد خالي اليدين.

قال تشانو بلطف: «ثمّة مقصّ هناك، اذهب وأحضره».

عاد دونغي، وهو على وشك البكاء، وأحضر المقصّ.

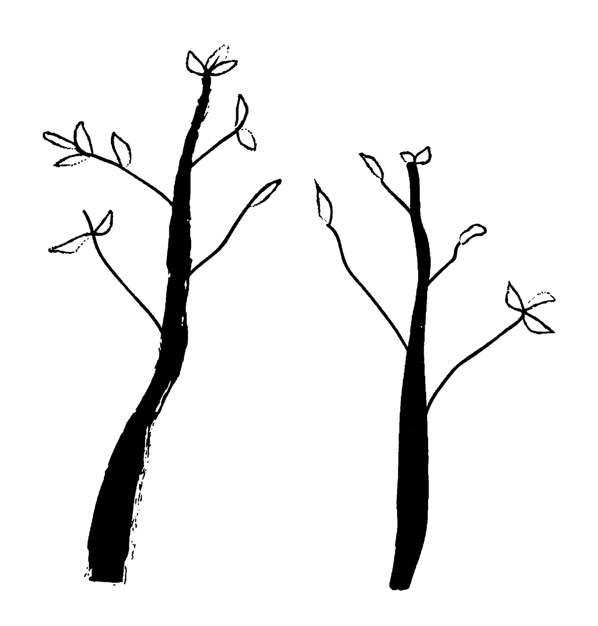
قطع تشانو قليلاً من الوبر من رقبة زيتونة. لم يؤلمها ذلك، ولكنّها ارتجفت، ولم تفهم ما كان يحدث. مدّ الجدّ صيّاح يده، ثمّ غادر القفص، وتراجع تشانو مبتعداً عن زيتونة، ثمّ اندفع إلى الخـارج، وأغلـق البوّابة. «يبدو الجرح خطيراً، علينا الذهاب إلى المستشفى».

أصـرّ الجـدّ صيّـاح قائلاً: «بعدما أنتهي مـن هذا». ثمّ أحرق حفنـة مـن الوبـر، ووضع الشـعر المحترق على جرحـه، قبل أن يربطه بقطعة قماش. فتطايرت رائحة الحريق وحملها الهواء. لم تدرك زيتونة أنّ تلك الرائحة الكريهة كانت مختبئة في فرائها.

صاح دونغي، الذي كان واقفاً إلى الجانب الآخر من القفص: «كم أنت لئيمة! لماذا عضضتِ جدّي؟».

شعرت زيتونة بالدوار. ولم تعرف بماذا تفكّر. كانت تروح وتجيء وهي تجرّ سلسلتها على أرض القفص الإسمنتية.





أيّام صعبة

نظر الجدّ صيّاح إلى زيتونة الممدّدة خارج متجره، بينما كان يثبّت إطار درّاجة. أمرها قائلاً وهو يدفع نظّارة القراءة إلى أعلى أنفه: «قلت لك عودي إلى البيت».

نظرت إليه زيتونة، ثمّ أغمضت عينيها. خلال الشتاء، كانت تتجـوّل فـي القريـة قبل العودة إلى البيت، ولكن بعد أن أصبحت أثقـل وزنـاً الآن، أصبحـت تتبـع الجـدّ صيّـاح إلى الخـارج في الصبـاح، وتمضـي النهـار بطولـه في المتجر. فهـي لم ترغب في العودة إلى البيت بمفردها.

لـم يعـد الجـدّ صيّاح يقيّد زيتونةكما كان يفعل في السـابق. ولـم تهـدأ وتبـدأ باكتسـاب بعـض الـوزن إلّا عندمـا كـفّ عـن تقييدهـا. عندمـا كانت حبيسـة فـي القفص ومقيّدة إلـى العمود، وعلـى الرغـم من أنّها بدت كبيرة الحجم للوهلة الأولى، بفرائها السـميك والمنفوش، إلّا أنّها أصبحت على شـفير الإصابة بفقر الدم، وكانت في مزاج سيّئ للغاية. رفضت حتّى النظر إلى وعاء الطعام الذي كان يضعه الجدّ تحت أنفها. أخيراً، هزّ رأسه قائلاً: «أنا أستسلم»، وفكّ قيدها.

عندما أصبحت زيتونة أقوى، تبعت الموسيقى إلى الكنيسة.

وفي المرّة التالية، ابتعدت أكثر. فهي لم تكن قادرة على البقاء في مكانها. كان قلبها مستنفداً من العاطفة وشعرت بوحدة شديدة. كلّما غادرت المنزل، كانت تأمل أن تلتقي بالكلب الأبيض، لكنّ ذلك لم يحدث. بدلاً من ذلك، التقت بكلب بنّي يملك بعضاً من دماء كلاب الصيد. وهكذا حملت بفوج جديد من الجراء.

عبس الجدّ صيّاح قائلاً: «ستلدين قريباً. عليك أنْ تبقي قريبة من المنزل، وإلّا فسينتهي بك الأمر بإنجاب صغارك في الشارع». أدخل القضبان المعدنية في الإطار أفقياً وشدّ البراغي، ثمّ وضع العجلة على الأرض، ودفع قطعة القماش الملوّثة بالشحوم عن حجره. فتح الباب الزجاجي المنزلق الذي كان نصف مغلق، مصدراً ضجيجاً عالياً، وخرج.

نهضت زيتونة بصعوبة عندما وقف أمامها مباشرة. كان بطنها كبيراً، وحركتها بطيئة.

تمتم الجدّ صيّاح وهو يدفعها بلطف: «أيّتها العنيدة».

صفعت يده بذيلها وابتعدت ببطء. لم يكن ثمّة مكان تذهب إليه ولم يكن لديها ما تفعله. تمنّت لو كان باستطاعتها إنجاب صغارها في مكان أفضل. انعطفت عند الزاوية أمام التعاونية الزراعية الوطنية، فقفزت الهرّة العجوز بخفّة عن نافذة التهوئة الطويلة. «ألم يحالفك الحظّ هذا اليوم أيضاً؟».

تابعت زيتونة السير. فابتسمت الهرّة العجوز ولحقت بها مصدرة رائحة حادّة، غير أنّ

زيتونة تجاهلتها.

نصحتها الهرّة قائلة: «كفّي عن العيش في الأحلام. ما الجدوى من كلّ هذا التجوال؟ ما من مكان أفضل من المنزل».

«اهتمّي بشؤونك».

«أرى أنّك لا تأخذين كلامي على محمل الجدّ. فكلّما تحدّثتُ بشيء مهمّ، تجاهلتِني. لقد عشتُ عمراً طويلاً، كما تعلمين، وأعرف الكثير».

حدّقت زيتونة إلى الهرّة، التي تراجعت بضع خطوات.

تابعت تقول: «لقد أنجبت كثيراً من الصغار أنا أيضاً، الكثير منهم، حتّى إنّني لا أذكر عددهم. كنت مثلك تماماً بشأن جرائي».

سألتها زيتونة بحدّة: «وماذا حدث؟».

«ما من أحد منهم هنا الآن، فقد رحلوا جميعاً. عشت مع بعضهم حتّى كبروا، لكنّهم رحلوا جميعاً. هذا ما يحدث دوماً».

«ليس لي».

«وما الذي يجعلك تعتقدين أنّك مختلفة؟ بعض جرائي تمّ بيعه، مع شريط حول أعناقهم كما لو كانوا هدايا، وبعضهم مات، وأحدهم غادر من دون أن يخبرني. العاقّ! أحببته كثيراً، لكنّه لم يعد قَطّ. أوه...». أجفلت الهرّة العجوز وربضت.

كان ثمّة شجار يختمر في قطعة أرض خالية في آخر الطريق. فقد أحاطت أربعة كلاب بكلب وحيد في الوسط. شهقت زيتونة عندما رأت الكلب الأبيض في وسط المجموعة، وقفز قلبها من مكانه. فكّرت في كلّ الجراء التي خسرتها. كان أباهم يقف على الطريق، الكلب نفسه الذي لم يبارح أفكارها. كان محاصراً.

كيف يعقل ذلك؟ أدركت أنّ أمراً سيّئاً للغاية على وشك أن يحدث. فاقتربت، وتوتّر جسدها، بينما بدت الكلاب الأربعة جاهزة للانقضاض عليه. كان ثمّة كلب بنّي بينها بدا شرساً على نحو خاصّ.

همست الهرّة العجوز: «زيتونة، فلنرحل من هنا!».

لم تقدّر زيتونة يوماً آراء الهرّة التي تعبّر عنها بصوت معسول. وفي هذه اللحظة تحديداً، لم ترغب في الإصغاء إليها. الآن. كان عليها أن تساعد الكلب الأبيض، كما ساعدها.

قالت الهرّة بحدّة: «لا تتورّطي، فكّري في وضعك!».

تجاهلتها زيتونة.

تحرّكت الكلاب الأربعة بسرعة أكبر. بدا الكلب الأبيض جاهزاً للمواجهة، على الرغم من أنّه كان يواجه معارضة قويّة. فجأة، قفزت الكلاب عليه.

تردّدت زيتونة. كانت الكلاب الخمسة قد اشتبكت وأصبحت كتلة واحدة، بينما تطاير الغبار في كلّ مكان. قفزت على بعضها، وتدحرجت، واخترقت زمجراتها وصراخها الهواء. كان الكلب الأبيض رشيقاً، ولكنّ الكلابَ التي اجتمعت ضدّه كانت كثيرة. تقدّمت زيتونة ببطء، في وضعيّة الهجوم، وانتظرت فرصة للانقضاض. لم تستطع معرفة من يعضّ من، ولكنّ الكلب الأبيض بدا في وضع حرج. ضربت الأرض بقوائمها ونبحت، لكن أيّاً من الكلاب لم ينتبه لها. أخذت تروح وتجيء، إلى أن حانت اللحظة المناسبة، وألقت بنفسها في الاشتباك. عضّت

كلّ من استطاعت الوصول إليه، إلى أن عضّها أحد الكلاب في فخذها وظلّ مطبقاً عليه.

صرخـت زيتونـة وهـي تتلوّى: «دعنـي!». توتّـر بطنها، ولم تسـتطع التنفّـس أو الرؤيـة. تجمّـدت في مكانهـا غير قادرة على الحركـة. كان ثمّـة أمـر غريـب. فقـد سـقطت فـي منخفـض في الطريـق، وراحـت تتخبّـط فوق العشـب الكثيف، ثمّ سـقط أحد الكلاب فوقها.

استجمعت كلّ قواها، ولكنّها لم تستطع النهوض.

«كفى!» تراجع الكلب البنّي إلى الخلف.

لـم يُفلـت الكلـب الأبيـض الكلـبَ الـذي كان مطبقـاً عليه بيـن فكّيـه. كان ذلـك الكلب يتلوّى على الأرض، وكانت الدماء والخدوش تكسو كلّ الكلاب.

قال الكلب البنّي: «حسناً، أعلم أنّك قويّ».

أخيراً فتح الكلب الأبيض فكّيه.

أومـأ الكلـب البنّي إلـى زيتونة وقال سـاخراً: «لولاها، لكنّا استمرّينا».

نظـر الكلـب الأبيض إلـى زيتونة بغضب وحدّة، فأشـاحت بنظرها بعيداً.

أخيراً، غادرت الكلاب الأربعة معاً، وهي تتبختر.

خفـض الكلـب الأبيض كتفيه، وقال معاتباً: «كان يجدر بك عـدم التدخّـل، أنـا أعـرف أنّك كنت تحاولين المسـاعدة، لكنّك تسبّبتِ بإذلالي. فالقائد يحارب وحده وينسحب وحده».

ضاق صدر زيتونة. هل تسبّبت بخفض منزلته؟ مشى الكلب الأبيض مبتعداً، من دون أن يسألها حتّى عمّا إذا كانت بخير. حاولت الوقوف، لكنّ قائمتيها الأماميّتَين خانتاها، وآلمها جرح فخذها. حاولت أن تلعقه، ولكنّها لم تستطع أن تصل إليه بسبب حجم بطنها. كما شعرت أنّ بطنها مشدود للغاية. هل كان صغارها خائفين؟

كان الجدّ صيّاح قد حذّرها من أنّها قد تنجب صغارها في الشارع. حتّى الهرّة أوصتها أن تعتني بنفسها. فجأة، شعرت بالخوف. كان النهار يقترب من نهايته. هل ستتمكّن من العودة إلى البيت؟ سرعان ما اشتدّ الظلام. مرّت السيّارات والدرّاجات بها من حين إلى آخر، لكنّ أيّاً من المارّة لم ير زيتونة راقدة على قارعة الطريق. عوت لكي يسمعها الجدّ صيّاح، وكرّرت ذلك عدّة مرّات، لكن من دون جدوى. اشتدّ الظلام، وازداد ألمها، وراحت ترتجف. أهكذا ستموت يا ترى؟ أرادت العودة إلى البيت. فقد مرّ زمن طويل منذ أن تعرّضت للضربات والكدمات بهذا الشكل. عوت مجدّداً. هل سيسمعها أحد؟ شعرت أنّها تزداد ضعفاً. تساءلَت ما إذا كانت هذه هي النهاية، وارتجفت. حاولت إبقاء عينيها مفتوحتين بصعوبة. كان الغبار وهواء الليل البارد قد جفّفا أنفها وحلقها.

«زيتونة؟».

تناهى إليها صوت مألوف، فقفز قلبها من مكانه.

تلمّس الجدّ صيّاح طريقه إليها. حاول أن يحملها، لكنّها

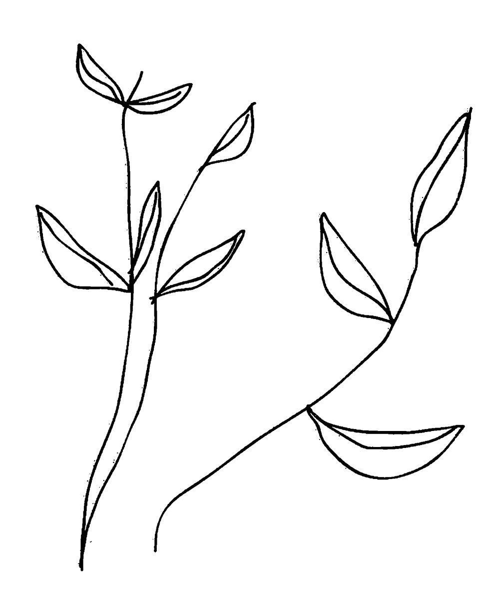
كانت ثقيلة جدّاً. «لماذا فعلتِ ذلك، هاه؟». بدا غاضباً من صوته، لكنّ لمسته كانت لطيفة. مرّر يده الدافئة على بطنها، فشعرت بالارتياح أخيراً.

«انتظريني هنا، سأعود قريباً».

أراحت زيتونة رأسها على الأرض، وغلبها النعاس. استيقظت عندما كان الجدّ صيّاح يكافح لحملها. وضعها في عربته وهو يئنّ قائلاً: «لم أرَ يوماً كلبة بهذا العناد. أنت تذكّرينني بتشانو، الذي كان يثير جنوني بعناده! من الصعب ترويضك. فكيف لا أقلق؟ أنت لا تصغين إليّ بتاتاً!».

سقطت زيتونة في العربة على وقع احتجاجات الجدّ صيّاح، واستغرقت في سبات عميق.





كوري المشاكسة

«هلّا أبعدتَ كوري من هنا؟» لوّحت الجدّة بملعقتها لإبعاد الجروة. «انظر، فراؤها يسقط في فول الصويا».

هربت كوري الشقيّة بعيداً، لكنّها عادت لسرقة المزيد من فول الصويا المسلوق.

«لا تقحمي أنفك هناك!».

رفعت الجدّة ملعقتها مجدّداً، فما كان من كوري إلّا أن انطلقت مبتعدة.

كانت زيتونة جائعة وترغب في أكل الحبوب هي الأخرى، لكنها لم تجرؤ على تقليد صغيرتها. لم يكن الأمر بسبب خوفها من الجدّة، بل لأنّها تشعر بالحرج بوجود الجدّ صيّاح. فهي لم تعد صغيرة بما يكفي لتتصرّف كالجراء، وكانت العلاقة متوتّرة بينهما. وقد أدركت أنّها لن تتمكّن من إمساك نفسها إذا ضربها الجدّ صيّاح مرّة أخرى، لذلك حرصت دائماً على عدم ارتكاب حتّى أصغر الأخطاء.

أصرّت الجدّة: «أبعدها من هنا أو قيّدها، كما أقول لك باستمرار».

«أضعها في القفص؟ هل تريدين أن تجلسي هنا

وتستمعي إلى أنينها المتواصل؟ أسرعي وأنهي ما تقومين به وحسب». ضحك الجدّ وهو يربط الملفوف الصيني في حديقة الخضار.

كانت كوري تقحم أنفها في كلّ شيء – تأكل بشراهة، وتجري، وتحدث الفوضى من حولها. لكنّها كانت كلبة جميلة، تشبه والدها تماماً. وكان الجدّ صيّاح متحيزاً لها. فقد باع سبعة كلاب لكنّه احتفظ بكوري، الأقوى والأجمل بينها. وقد فرحت زيتونة لأنّها ستشاهدها وهي تكبر.

حذّرتها زيتونة من مكانها أمام الوجار: «كوني مطيعة يا كوري».

ركضت كوري إلى حديقة الخضار، وهي تنبح بصوت عالٍ. توقّفت فجأة أمام نبتة اليقطين، فصرخت الهرّة العجوز وقفزت عن الحائط. يبدو أنّها سقطت وهي تغفو. قالت متذمّرة: «علّمي هذه الصغيرة بعض الأدب!».

ضحكت زيتونة وكذلك الجدّ صيّاح والجدّة.

اشتكت الهرّة قائلة: «لا تربّي جروة بهذا السلوك يا زيتونة».

هزّت زيتونة كتفيها قائلة: «وماذا يمكنني أن أفعل؟ ألا تستطيعين الاعتناء بنفسك؟».

«تلك المشاكسة لن تسمح لي حتّى بأخذ قيلولة»، ثمّ استدارت ورحلت غاضبة.

قال الجدّ: «يبدو أنّ محصول الكاكي سيكون جيّداً هذا

العام. فقد أصبح عمر هذه الشجرة سبع سنوات».

ذكّرته الجدّة الجد وهي تدقّ فول الصويا في هاون ثمّ تجمعها على شكل مكعّبات: «يجب أن نعطي يونغسون حصّة أكبر. ففي العام الماضي استاءت لأنّها لم تحصل على كثير منها. أنت تعلم أنّها هي التي زرعت الشجرة في الأساس».

قصّ الجدّ صيّاح الملفوف الذي قطفه من حديقة الخضار، فاشتمّته كوري. فجأة، زحفت دودة بالقرب من الجذور، فقفزت إلى الخلف بدهشة.

تابعت الجدّة: «يجب ألّا يشعر صاحب الشجرة أنّه مهمل، فهي التي زرعتها عندما أنجبت طفلها الأوّل. ستنمو الشجرة بشكل أفضل إذا شعر المالك بالرضا».

سخر الجدّ صيّاح قائلاً: «لا أحد يملك شجرة، يكفي تقاسم الفاكهة. وأنا دائماً أعطيها الأجمل بينها! أختار الثمار الأكثر حمرة والخالية من الخدوش، لأنّها ابنتي الوحيدة».

سألته الجدّة مبتسمة: «أوه، حقّاً؟».

«أسرعي واصنعي لي بعض الكيمتشي. أنت من حدّد هذا الموعد على الرغم من أنّني قلت إنّني لست بحاجة إليه. عليّ أن أكون هناك في الوقت المحدّد».

«هل ستمرّ بمتجر تشانو أوّلاً؟».

أجاب الجدّ: «بالطبع. لا بدّ لي من الذهاب إلى البلدة! فأنا متأكّد من أنّ الكيمتشي نفدت لديهم. وفي زيارتهم الأخيرة، ترك

دونغي روبوته هنا، وهو لا يستطيع العيش بدونه».

غمغمت الجدّة وقد احمرّ وجهها: «ليس هذا هو المهمّ».

عمل الزوجان لفترة من الوقت من دون أن يتحدّثا. كان الجدّ صيّاح يدخّن وهو يقطع البصل الأخضر، والجدّة تملّح الملفوف وتضع مكعّبات الصويا الملساء على سطح عالٍ وظليل مكسوّ بالقشّ حتّى تجفّ. هنا لن تتمكّن كوري من الوصول إليها.

انتهت الجدّة بعد الظهر، مع أنّها عملت بسرعة من دون استراحة. غير أنّ صبر الجدّ كان قد نفد، بعد أن بدّل ملابسه بملابس جميلة. «كم أنت بطيئة! لستُ أنا من حدّد الموعد في المستشفى. أنت تؤخّرينني!».

«ربّاه! لقد انتهيت، كفاك تذمّراً».

«أنا لا أتذمّر، الشمس على وشك الغروب». وضع الجدّ صيّاح مرطبان الكيمتشي الطازج على ظهر درّاجته، وهو يتمتم بصوت منخفض. دفع الدرّاجة إلى الخارج، ثمّ ركب عليها، وأخذت سترته ترفرف في الهواء. بدا خالي البال، مثل طفل صغير.

استرخت الجدّة أخيراً، وجلست على كرسي الجدّ صيّاح المريح في الفناء، تحت الشرفة تماماً. «آمل أن يكون كلّ شيء على ما يرام...».

وضعت كوري كفّيها الأماميّتين في حجرها، متوسّلة إليها

لتحملها. راقبت زيتونة تعبير الجدّة القلق، بينما تمايلت أوراق الكاكي مع النسيم ملقية الظلّ على وجهها من حين إلى آخر. كان ثمّة أمر سيّئ يلوح في الأفق. فنبحت بصوت عالٍ لدرئه أيّاً يكن.

نظرت الجدّة إلى زيتونة، ومن ثمّ إلى الأحواض والأوعية المتناثرة في الفناء. «يا إلهي، أنا لم أنته بعد! يجب عليّ أن أطعمكما أنتما أيضاً. والآن، الهاتف يرنّ. انتظراني، سأعود». ثمّ نهضت وفركت ظهرها المؤلم قبل أن تختفي في الداخل.

أخذت كوري فردة حذائها وجلست تمضغها، مع أنّها كانت تعرف أنّها ستقع في المتاعب عند عودة الجدّة.

مشت زيتونة نحوها ووكزتها قائلة: «لا تفسديها».

عبست كوري، وهزّت رأسها قائلة: «إنّها ليست لذيذة مثل الحبوب، أريد المزيد منها».

«ستطعمنا تقريباً». تمدّدت زيتونة تحت أحد المقاعد. فأتت إليها كوري وجلست بالقرب منها، واضعة رأسها على بطن أمّها.

تناهى إليهما صوت الجدّة على الهاتف: «كان يعاني من الإسهال، ولكنّه ليس مصاباً بشيء خطير. شهيّته ليست كما في السابق... نعم، بالطبع سنفرح بزيارتك. فقد مرّ وقت طويل منذ أن رأيتك، أيّتها العزيزة! نعم، نعم...».

ومضت عينا كوري بفضول. «أمّي، من تكون عزيزة؟»

«عزيزة؟ حسناً...». رفعت زيتونة رأسها وأغمضت عينيها. لم يسبق لها أن سمعت بذلك الاسم من قبل. «أوه، إنّها شيء جيّد، شيء جيّد جدّاً».

قهقهت الهرّة العجوز من أعلى الحائط، وأراحت رأسها على كفّيها الأماميّتين. «هل قلتِ إنّها شيء جيّد؟ زيتونة، إذا كنت لا تعرفين، قولي ذلك ببساطة».

صاحت كوري بحدّة: «من الوقاحة استراق السمع إلى الأحاديث!».

ابتسمت زيتونة، فابنتها مثلها. بذلك الوبر القصير اللامع، كانت كوري أكثر جمالاً، لكنّها صريحة وفضوليّة، تماماً مثل أمّها.

قالت الهرّة العجوز: «أنت الوقحة. أهي جريمة إن كنتُ أتمتّع بسمع حادّ؟ يا لأولاد هذه الأيّام... انتظري أيّتها الشقيّة الصغيرة. سأنال منك يوماً».

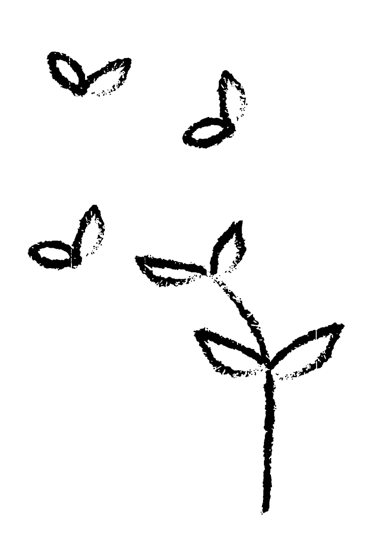
قالت كوري ساخرة: «أودّ أن أراك تحاولين. إن فعلتِها، سأعضّك!».

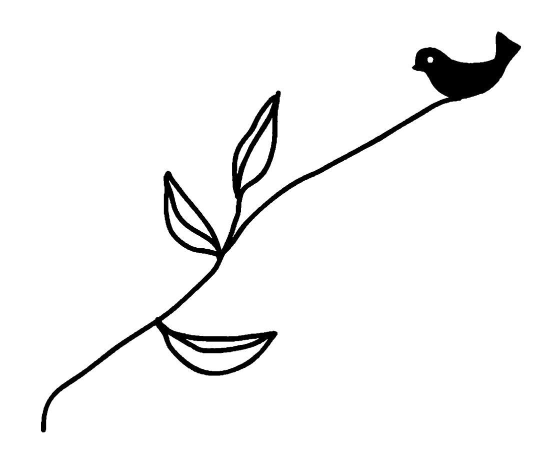
ردّت الهرّة العجوز باستهجان: «كان يجدر بي أن أعرف أنّ المنطق لا يُجدي مع حيوانات تمضي أيّامها في النظر إلى الأرض». ثمّ تثاءبت وانصرفت.

نظرت زيتونة بحذر إلى تلك الأسنان الحادّة. فعلى الرغم من أنّ الهرّة عجوز، وكانت تسقط أحياناً عن الحائط خلال نومها، إلّا أنّ المرء لا يعرف متى يمكن أن تعضّ.

نادت الجدّة: «من يريد المجيء معي إلى مزرعة الدجاج؟».

ركضت كوري، وهي تهزّ ذيلها. فرافقتهما زيتونة حتّى البوابة، ثمّ شاهدت الجدّة وهي تخرج مع صغيرتها حاملة سلّة بإحدى يديها. راقبتهما زيتونة وهما تسيران على طول السدّ المحيط بالحقل. فجأة، اندفعت الدماء إلى رأسها وشعرت بالدوار. أهي الشمس؟ ركضت كوري إلى الأمام ثمّ مشت خلف الجدّة. بالنسبة إلى زيتونة، بدت كما لو أنّها تقفز برشاقة، كما لو أنّها تطفو في الهواء.





عزيزة

قالت الضيفة، وهي تمسك بيدَي الجدّ صيّاح: «آه يا أخي العزيز، كيف حالك؟».

أجاب الجدّ صيّاح مبتسماً: «أنا بخير! هل أصبتِ بالدوار في القطار؟».

«أصبحت القطارات ممتعة هذه الأيّام. كانت الرحلة مريحة للغاية». لم يسبق لزيتونة قطّ أن رأت الجدّ صيّاح بهذه الحماسة. حدّقت هي وكوري إلى الصندوق الكبير الذي وضعته الضيفة من يدها. كان مربوطاً بحبل وكان ثمّة ثقب في أعلاه. أطلّ من الثقب رأس دجاجة ذات ريش بنّي محمرّ وعُرْف واضح. مع ذلك، كانت عيناها غائمتين، وعنقها محنيّاً، بحيث بدت على شفير الموت.

تقدّمت كوري ووكزت الصندوق، ثمّ هتفت: «إذاً، هذه هي عزيزة!».

أخذت الضيفة تشرح قائلة: «أحضرتُ أرزّاً حلواً ودجاجة. هذا الطعام سيجدّد صحّتك. اغلها معاً لفترة طويلة، فالمرق سيفيدك. كنتُ أودّ إحضار المزيد لو لم يكن الحمل ثقيلاً جدّاً! فقد حملته على رأسي، بحيث شعرت أنّ رقبتي ستنكسر». فكّت

أخذ الجدّ صيّاح السكّين عابساً وحدّق إلى الدجاجة.

حثّته الجدّة قائلة: «افعل ذلك الآن حتّى أتمكّن من طهوها الليلة. هكذا، تأكلها غداً».

أومأ الجدّ صيّاح برأسه موافقاً. غير أنّه جلس على المنصّة واكتفى بالمراقبة. بقي على هذه الحال إلى أن حلّ الظلام تماماً. عندها فقط أخذ يجري خلف الدجاجة. كانت الدجاجة تتسلّل من بين يديه في كلّ مرّة، فتقفز من قدر خزف كبير إلى آخر، وتهبط وهي ترفرف بجناحيها.

أخذت كوري تجري في المكان بحماسة: «أوه يا عزيزة! أنت مدهشة!».

كان ذلك كثيراً بالنسبة إلى زيتونة، التي ذهبت إلى وجارها وجلست تراقب من هناك. أمّا الهرّة العجوز، فضحكت طويلاً من أعلى الحائط.

أخيراً، تمكّن الجدّ صيّاح من إمساك الدجاجة من جناحها. «يا إلهي، لم أعد أقوى على التنفّس! لقد أمسكتُ بك أخيراً». حبس الدجاجة تحت دلو مقلوب، ثمّ ذهب إلى السقيفة وهو يلهث، وأتى بحبل طويل. كانت الدجاجة ترفرف بحيويّة شديدة، بحيث راح الدلو يعلو عن الأرض. أخرج الجدّ الدجاجة، وربط الحبل حول عنقها، ثمّ تمتم وهو يربط الطرف الآخر من الحبل بغصن شجرة الكاكي: «لا أستطيع قتل هذه الدجاجة».

رفرفت الدجاجة ولوّحت بمخالبها كما لو كانت تحكّ الهواء.

الحبل، وفتحت الصندوق، ثمّ أخرجت الدجاجة.

رفرفت الدجاجة، وكوّرت مخالبها وارتجفت.

صرخ الجدّ صيّاح: «أحضرتِ كلّ هذا الأرزّ! لكنّني أعرف العناء الذي تكبّدتِه لزراعته. لا بدّ أنّه يزن عشرين كيلوغراماً على الأقلّ! وهذه الدجاجة، أليست دجاجتك الحاضنة؟».

«وماذا لو كانت كذلك؟ إذا كان مفيدة لصحّتك...».

«أليست مرتخية جدّاً؟ هل ستلفظ أنفاسها أم ماذا؟» وكز الجدّ صيّاح الدجاجة، التي فتحت عينيها ثمّ أغمضتهما مجدّداً.

قالت الضيفة ببهجة: «أوه، إنّها مجرّد دجاجة ريفيّة. هذه المرّة الأولى لها في القطار، لذا لا بدّ أنّها أصيبت بالدوار».

انفجر الجدّ صيّاح ضاحكاً.

اقتربت زيتونة وكوري من الدجاجة، ثمّ سرعان ما شعرت زيتونة بالملل، لكنّ كوري ظلّت تكز الدجاجة التي اكتفت برفّ عينيها.

عندما اقتربت الشمس من المغيب، هتفت كوري فجأة: «لقد عادت عزيزة إلى الحياة!».

كان ذلك صحيحاً، فقد تعافت الدجاجة وبدأت تتجوّل في الفناء. كانت الضيفة قد غادرت أساساً، لكنّ الدجاجة لم تبحث عنها، بل بدت وكأنّها في بيتها.

أعطت الجدّة سكّيناً للجدّ صيّاح قائلة: «لا أستطيع فعل ذلك، تولَّ الأمر أنت».

صُدمت زيتونة وكوري وتراجعتا إلى الخلف.

نبحت كوري متعاطفة تحت الشجرة، وانضمّت إليها زيتونة بشيء من الانزعاج.

«سأضطرّ لتركك هنا الآن»، ثمّ نفض الجدّ يديه وعاد إلى الداخل.

سألت كوري: «أمّي، لماذا يفعل ذلك بعزيزة؟».

قاطعتهما الهرّة العجوز وهي تضحك: «لن تكون هنا في الصباح»، ثمّ مرّرت لسانها على شاربها ولعقت مخالبها. بدا صوتها أكثر شرّاً من المعتاد، وفاحت منها رائحة أكثر حدّة الليلة.

سألتها زيتونة بحذر: «أنت لا تخطّطين لشيء، أليس كذلك؟».

«من، أنا؟ كلّا. لكنّ الليل... الليل قد يفعل شيئاً».

حذّرتها زيتونة: «لا تتجرّأي، ستكون عيني عليك. لا تحلمي حتّى بذلك».

سخرت منها الهرّة العجوز قائلة: «آه، كم أخفتني! وكيف أتجرّأ على أيّ حال؟ أنت تتوهّجين عندما يطلع القمر. ستكون عينك عليّ إذاً. أوه، ماذا سأفعل؟».

«أنا أتوهّج عند طلوع القمر؟». لم تكن زيتونة واثقة ممّا إذا كانت الهرّة العجوز تسخر منها وحسب.

أسرّت لها الهرّة العجوز قائلة: «لهذا السبب تعجبينني، كما تعلمين، فأنت مختلفة».

«ماذا تقصدين، أنا أعجبك؟».

«حسناً، ما أعنيه أنّك لستِ سيّئة، باعتبارك كلبة».

«أنا أتوهّج؟».

«في الليل، يبدو لونك مائلاً إلى الزرقة، ربّما لأنّني أتمتّع ببصر حادّ جدّاً، فنظري لا يزال حادّاً، كما تعلمين! فأنا أتحدّر من سلالة ممتازة، حتّى بمعايير القطط...».

«تقولين إنّ لوني يبدو مائلاً إلى الزرقة؟ كفاك هراء، لا تسخري منّي».

«حسناً، أنت لا تصدّقينني، ولا عجب في ذلك، فالمرء لا يعرف إلّا القليل عن نفسه».

اقشعرّ وبر زيتونة. «أنت لا تعرفين شيئاً ولكنّك تتصرّفين كما لو كنت تعرفين كلّ شيء. لماذا قد تتجوّل قطّة تتحدّر من سلالة أصيلة في الأزقّة، وتسترق النظر إلى منازل الآخرين؟».

أجابتها الهرّة العجوز بلا اكتراث: «أنا أتنزّه وحسب».

تمتمت زيتونة في نفسها: «أصوات القطط تبدو دائماً ناعمة، ولكن لا تنسي أسنانها المخفيّة». حدّقت إلى الحائط، ثمّ راحت تغفو من وقت إلى آخر، لكنّها أمضت معظم الليل مستيقظة إلى أن اقترب الفجر. بقيت عيناها مثبّتتان على الحائط، ولكن لم يحدث شيء بينما كانت تراقب.

فجأة، سمعت جلبة. ما الذي يحدث؟ نبحت زيتونة تحت شجرة الكاكي. كان واضحاً أنّ الدجاجة والهرّة العجوز تتصارعان. لكنّها لم تستطع رؤية شيء سوى الظلال لأنّ الشمس لم تكن قد طلعت بعد. رفرف جناحان وسُمع صوت أنفاس مجهدة، ثمّ اختلطت جميع الأصوات في أذني زيتونة. وصلتها رائحة دماء.

كانَ كلّ شـيء يجري في الجوّ. فجأة، توقّف الضجيج. أصيبت إحداهما، لكنّها لم تستطع أن تعرف من.

«كيكي كيكي!».

بعد نصف ساعة فقط، بدأت الشمس تشرق، وحلّ الصباح. كان الصوت قادماً من شـجرة الكاكي. أخذت الدجاجة ترفرف وتصيـح كالديـك: «كيكـي كيكي!». ومـع أنّ الحبل كان لا يزال ملتفّـاً حـول عنقهـا، إلّا أنّـه بدا، بصدرها المنتفـخ بفخر، كما لو كان ميداليّة.

سألت كوري مخاطبة الجزء العلوي من الحائط: «ما خطب وجهك؟».

اسـتدارت زيتونـة لتنظـر. كانـت الهـرّة العجـوز واقفة على الحائـط وقـد غطّتها الخدوش والدماء. حدّقت الهرّة بلا اكتراث إلى الدجاجة التي تصيح وترفرف في الأسفل.

نـادت الدجاجـة: «أيّتهـا الصغيرة! لقد دعوتني عزيزة، أليس كذلـك؟ سـأقبل الاسـم». ثـمّ نفخـت صدرها مجـدّداً، وأومأت برأسها مسرورة.



مَن بقي ومَن رحل

قُيّدت زيتونة مجدّداً، رغم أنّها احتجّت وقفزت هرباً من السلسلة. كان ذلك لأنّها عضّت عزيزة بقوّة بحيث كادت أن تقتل الدجاجة. مع إخضاع زيتونة، أصبحت عزيزة أكثر زهواً وعجرفة، لا سيّما عندما سمعت الجدّ صيّاح يخبر الجدّة أنّه يفكّر في إحضار ديك إلى المنزل.

صاحت كوري: «كلّا يا عزيزة! هذه لي!».

تجاهلت عزيزة الجروة واستولت على وعائها وصدّتها، ثمّ انشغلت بنقر الطعام. منذ أن انضمّت عزيزة إلى الأسرة، أصبحت كوري تعاني من الجوع الدائم. اقتربت كوري من وعاءها، فرفعت عزيزة رأسها محذّرة. مع ذلك، دسّت كوري خطمها في الطبق.

«كلّا!»، ونقرت كوري على أنفها.

صرخت كوري وتراجعت إلى الخلف، وخطمها ملطّخ بالدماء. كانت هذه المرّة الثانية. في المرّة الأولى التي حدث فيها ذلك، هُرعت زيتونة إلى عزيزة، وكادت أن تنتزع جناحها. ذهبت كوري باكية إلى والدتها، واختبأت خلفها.

صاحت زيتونة: «اتركي ذلك الوعاء أيّتها السفّاحة!».

«هل دعوتني للتوّ بالسفّاحة؟».

إلى الحيّ من الأعلى، ومن ثمّ الهبوط بشكل مذهل إلى الفناء. تنقر أرض الفناء عندما تجوع، وتنقر كوري كلّما شعرت بالملل. أمّا كوري، فقضت معظم وقتها في تجنّب عزيزة.

تمتمت الهرّة العجوز من فوق السطح: «انتظري وسترين... أنا أتحيّن الفرصة وحسب». ولكنّها لم تقترب، خشية أن تتعرّض لهجوم.

بدأ الهاتف يرنّ من داخل المنزل، كما كان يحدث من وقت إلى آخر منذ الصباح الباكر. توقّف قبل أن يبدأ بالرنين مجدّداً، ثمّ صمت وعاد صوته ليرتفع مرّة أخرى. لكنّ الجدّ صيّاح كان في المتجر، وكانت الجدّة خارج المنزل تبيع السمك. أخيراً، توقّف الهاتف عن الرنين.

قالت عزيزة وهي تفرد جناحيها: «سيُحضر ديكاً إلى المنزل من أجلي. عندما يصبح الديك هنا، سيرعبكم!» طارت عزيزة إلى أعلى شجرة الكاكي. «الجدّ قادم!».

عل عاد الآن؟ في منتصف النهار؟ لم تلاحظ زيتونة رائحته المعدنية، لأنّ تركيزها كان منصبّاً على عزيزة.

دخل الجدّ صيّاح من دون درّاجته. كان شاحباً وغير متّزن.

ركضت عزيزة وراحت تجري حوله: «ماذا عن الديك؟ أين هو؟».

كان ثمّة خطب ما، فقد بدا وكأنّه على وشك السقوط. اقترب الجدّ صيّاح من كرسيّه ببطء وجلس بحذر شديد، ثمّ أسند ظهره إلى الخلف وأغمض عينيه.

«لقد سمعتني. انظري ماذا فعلتِ بها!».

نظـرت إليهـا الدجاجـة قائلـة: «أردت أن آكل مـن وعـاء أنا أيضاً، فأنا ضيفة في هذا المنزل. كيف تتركان ضيفة تأكل ما تناثر على الأرض؟».

قالت زيتونة ساخرة: «ضيفة؟ كنت على وشك أن تصبحي عشاء».

تجاهلتها الدجاجة وتابعت تقول: «في الواقع، لم أعد ضيفة، بل أنا فرد قيّم في الأسرة. وقريباً، سأضع البيض للجدّ والجدّة، لذلك عليك أن تحسني معاملتي».

تمتمـت زيتونـة: «كان يجـب أن تصبحـي حسـاءً منذ وقت طويل».

«أوه، كفـاكِ هـراء! هـل تعتقديـن أنّني بهذه السـهولة؟» لم تتراجع عزيزة.

أخذت زيتونة تشدّ بسلسلتها غاضبة، بينما تابعت عزيزة نقر طعـام كـوري مـن دون أن يرفّ لها جفـن. وبما أنّها كانت تتكلّم بفمها الممتلئ، فقد تناثر الأرزّ بعشوائيّة حول الوعاء. لو لم تكن زيتونـة مقيّـدة، لكانـت التهمتها بلقمـة واحدة. مع ذلك، كان من المسـتحيل القبـض على عزيزة. فهـي تقفز وتنزلق من مكان إلى آخر عند الحاجة، ويمكنها بسـهولة الوصول إلى أعلى الحائط. وحتّى الهرّة العجوز تخلّت عن مكانها المعتاد وبدأت تسير على أسطح المنازل بدلاً من ذلك، على الرغم من أنّ عزيزة تستطيع أن ترفرف وتطير إلى السـطح أيضاً. كانت الدجاجة تحبّ النظر

«كيف يعود خالي الوفاض؟ كيف أمكنه ذلك؟». أخذت الدجاجة تروح وتجيء أمام الجدّ صيّاح غاضبة. وعندما لم يعرها أيّ اهتمام، رفرفت بجناحيها وطارت إلى بقعة الأزهار وراحت تحفر الأرض، ممّا تسبّب بتطاير التراب حولها.

استأنف الهاتف رنينه مجدّداً، لكنّ الجدّ صيّاح لم يتحرّك. هل كان يستريح وحسب؟ هل استغرق في النوم؟ أخيراً، مال رأسه جانباً وتدلّت ذراعه من الكرسيّ، بينما ألقت أوراق الكاكي بظلالها على وجهه.

دخل تشانو إلى الفناء. فرفعت زيتونة أذنيها، لكنّها عادت واسترخت عندما لم تر دونغي. نظر تشانو إلى أبيه، قبل أن يُهرع إلى الداخل ليردّ على الهاتف. خرج بعد وقت طويل، وقد بدا عليه القلق، ثمّ تمتم وهو ينظر إلى السماء: «الذهاب إلى أخصّائي سيسبّب له صدمة». مال يتأمّل أباه وهو نائم. أخيراً، أيقظه بصوت رقيق، ثمّ ساعده على الوقوف، وقاده إلى الداخل.

في صباح اليوم التالي، خرج تشانو والجدّ صيّاح معاً من المنزل. كانت عينا الجدّ صيّاح غائرتين وداكنتين، وبدا أكثر شحوباً ممّا كان عليه في اليوم السابق.

احتجّ تشانو قائلاً: «هذا كثير. عليك أن تشتري لهما الطعام ولن تكون قادراً على العناية بهما. لماذا لا تتخلّص منهما؟».

أمالت زيتونة رأسها. كان ثمّة خطب ما.

تابع تشانو: «عليك أن تهتمّ بصحّتك».

جلس الجدّ صيّاح على مقعده وأشعل سيجارة.

«أبي، لقد أمرك الطبيب بأن تقلع عن التدخين».

«إنّها عادة قديمة. ماذا أفعل؟ أنا أشعر أنّني بخير، فالدواء يؤدّي مفعوله. كل هذه الضجّة بسبب اضطراب في المعدة...».

أخذ الجدّ صيّاح نفساً، لكنّه سرعان ما بدأ يسعل، بحيث اضطرّ لإطفاء سيجارته. أطلق تنهيدة طويلة ثمّ قال: «لا يمكنني بيع الاثنتين، سيصبح المنزل فارغاً. يجب أن يكون في المنزل أطفال يصرخون وطعام يُطهى، وهذا المنزل ليس فيه سوى عجوزين».

«أبي، كفى».

حدّق الجدّ صيّاح إلى زيتونة قائلاً: «سيصبح المنزل هادئاً جدّاً من دون وجود كلب على الأقلّ».

بادلته زيتونة النظر. كان الجدّ صيّاح قد باع أساساً كثيراً من جرائها، ولم يتبقَّ لها سوى كوري. ويبدو الآن أنّه ينوي أن يبيع كوري أو أن يبيعها هي، ولن تعود أبداً. فشعرت أنّ قلبها قفز إلى حلقها.

سأله تشانو: «بأيّ منهما تريد الاحتفاظ، الأمّ أم الجروة؟».

لم يجبه الجدّ صيّاح ولم يرغب تشانو في الضغط عليه. أمّا زيتونة، فجفّ حلقها خوفاً.

مع أنّ الجدّ صيّاح بدا مريضاً، إلّا أنّه كان يقوم بعمله. كان يكنس الفناء، ويزيل الأعشاب الضارّة من بين الأزهار، ويروي حديقة الخضار، كما كان يطعم الكلاب. قال وهو يصبّ حساء اللحم في وعاء زيتونة: «كُلي يا زيتونة»، ومرّر يده على رأسها. أمّا كوري، فأعطاها حبيبات الطعام الجاهزة.

شعرت زيتونة بعقدة في حلقها. كانت هي التي ستباع. فاضت عيناها بالدموع ونظرت بحزن إلى الجدّ صيّاح، الذي أشاح بنظره بعيداً. إلى أين ستذهب؟ ماذا سيحلّ بها؟ على الأقلّ، فإنّ كوري الصغيرة ستبقى هنا.

اقتربت عزيزة من وعاء زيتونة، وبدت فجأة غير مهتمّة بطعام كوري.

قال لها الجدّ صيّاح بحدّة: «اغربي من هنا!». ثمّ التقط الدجاجة وألقاها بعيداً. فهبطت على الأرض وهي ترفرف وتصيح وكأنّها تحتضر.

ضحكت الهرّة العجوز من أعلى الحائط، فيما ذهبت زيتونة إلى وجارها وتكوّرت فيه. فلحقت بها كوري وتكوّرت بجانبها. كان المكان ضيّقاً، لكنّ زيتونة شعرت بالراحة.

قالت كوري بتردّد: «أمّي، أعتقد أنّ شيئاً سيّئاً سيحدث».

لعقت زيتونة وجه صغيرتها بلسانها الجافّ والخشن. «نعم، أعتقد أنّك على حقّ».

«ماذا سيحدث؟».

تنهّدت زيتونة. كثير من الأمور سارت بشكل خاطئ في حياتها. ولسبب ما، كانت تعتقد أنّه لن يحدث معها أمر سيّئ آخر. لكن يبدو أنّ الشتاء يخبّئ لها المزيد. ماذا سيحلّ بها الآن؟ أخذت نفساً عميقاً، ولكن بحذر، لكي لا تتوتّر كوري.

قال صوت في الخارج: «الكبيرة؟ أوه، تلك السابسال

الهجينة؟». كان صوت تاجر الكلاب.

توتّرت أعصاب زيتونة وتيّقظت، ونما الخوف بداخلها. هل سيبيعها له؟ خرجت من الوجار وهي تنبح. فخافت عزيزة، التي كانت تملأ بطنها من وعاء زيتونة، وطارت بعيداً.

كان تاجر الكلاب قد أحضر درّاجته وعلى ظهرها القفص السلكي. ألقى نظرة إلى زيتونة.

صاحت هذه الأخيرة: «لا ترسلني معه!». كان قلبها يتقّطع، وكلّما نبحت، شعرت أنّ حلقها يتمزّق.

قال تاجر الكلاب ضاحكاً: «وكيف سألتقطها؟ اسمح لي، فهي مذهلة. لو كانت من سلالة نقيّة، لشكّلت عيّنة ممتازة».

لم يجبه الجدّ صيّاح وتشانو. راقب الجدّ زيتونة وهي تقفز أمام وجارها.

قال تاجر الكلاب وهو يهزّ كتفيه: «سأعود في العام المقبل من أجل الجروة. فهي تحتاج إلى بعض الوقت لتصبح منسّلة».

غاص قلب زيتونة، كانت قد نسيت أمر كوري. لا يمكنها أن تسمح برحيل كوري، فهذا سيكون أسوأ. لماذا يجب أن تعاني كلّ ذلك؟

قال الجدّ صيّاح: «غريب، إنّها لا تطيقك».

«أنت تعرف، هكذا هي الكلاب».

«هذا ما أظنّه. فأنت أشبه بحاصد الأرواح».

تلاشت ابتسامة تاجر الكلاب وارتعش خدّه بانزعاج.

استدار الجدّ صيّاح وجلس على كرسيّه يحدّق إلى زيتونة

التي واصلت نباحها.

وقف تاجر الكلاب هناك مستاء. «انظر، إن كنت لن تبيع، فعليّ الذهاب إلى أماكن أخرى».

قال الجدّ صيّاح مشيراً برأسه إلى كوري: «خذ هذه».

دار العالم من حول زيتونة التي أطلقت عواء طويلاً. كان على الجدّ صيّاح أن يعرف أنّ البقاء والرحيل سيعذّبانها بالقدر نفسه، ولكنّه لم ينظر إليها. أشعل سيجارة وما لبث أن بدأ يسعل بشدّة بحيث انحنى إلى الأسفل. شدّت زيتونة بسلسلتها، وراحت تقفز وتثب، ولكنّ تاجر الكلاب أمسك بصغيرتها وزجّها في القفص السلكي. أخذت كوري تبكي، بينما لم تكفّ زيتونة عن النباح. ما يحدث كان مشابهاً تماماً لذلك اليوم الذي زُجّت فيه أمّها وإخوتها في القفص وأُخذوا بعيداً. نظرت كوري بعينيها السوداوين إلى عينيّ أمّها، وضغطت وجهها على القفص السلكي. بدت في حالة ذهول من شدّة الرعب.

قال التاجر بفظاظة قبل أن يغادر: «لقد أعطيتك سعراً جيّداً، لأنّك زبون منتظم».

عضّت زيتونة على سلسلتها، التي قعقعت عندما احتكّت بأسنانها، فشعرت أنّ الرنين يخترق رأسها. سمعت أنين كوري وبكاءها من فوق الحائط، فنادتها بدورها.

فجأة، استعاد العالم هدوءه من جديد.



موسم الحزن

نـزع الجـدّ صيّـاح السلسـلة عن عنق زيتونـة عندما رفضت تناول الطعام. بدلاً منها، حُبست عزيزة في القفص. أثارت عزيزة ضجّـة كبيـرة، لكـنّ الجدّ تجاهلها. كان قد بدأ يذهب إلى متجره من جديد، لكنّه يعود باكراً ويبدو كئيباً. رفضت زيتونة الاقتراب منـه، واكتفـت بتنـاول الحدّ الأدنى مـن الطعام اللازم للبقاء على قيـد الحيـاة، مـن دون أن يراها. كانت تتجـوّل في الخارج طوال اليوم ولا تعود إلى المنزل إلّا عندما تشعر بالإنهاك. كانت تعود دائماً، ولـم يعجبها ذلك.

اليوم، دخلت زيتونة الحيّ. كانت قد ابتعدت حتّى المدرسة الابتدائية، من دون أن تجد شيئاً. تُرى أين ذهبت كوري؟ لا بل أيـن ذهـب الجميـع؟ رأت الجدّ صيّاح جالسـاً القرفصاء بجانب الطريق، ودرّاجته بالقرب منه. فتوقّفت أمام مركز كبار السنّ. ما الذي كان يفعله؟ اقتربت من حافّة الطريق. في أثلام الحقل، كان ثمّة سلم فولاذي ملتوٍ، ألقاه أحدهم هناك.

سألها الجدّ صيّاح: «زيتونة، أين كنتِ؟».

غير أنّ زيتونة أبتِ النظر إليه.

قال متنهّداً: «أنت تتجوّلين كثيراً. أنا الإنسـان الوحيد الذي

يتسامح مع كلبة مثلك. هيّا بنا إلى المنزل».

تبعته زيتونة ببطء، تاركة فجوة كبيرة بينهما. وكانت تتوقّف كلّما استدار لينظر إليها. فمنذ أن أخذ تاجر الكلاب كوري، أصبحت تتجنّبه كلّما حاول مداعبتها.

صدر صرير عن البوّابة وهو يفتحها، ثمّ دخلا. قفزت الهرّة العجوز، التي كانت تتجوّل حول القفص، ثمّ لاذت بالفرار. فبدأت عزيزة تُقاقي: «أخرجني من هنا! ستدفعين الثمن أيّتها الهرّة العجوز! هل تعلم ماذا قالت لي؟ قالت إنّها لا تطيق الانتظار لتغرز أسنانها بي!».

تجاهل الجدّ صيّاح الدجاجة ودخل. أمّا زيتونة، فذهبت إلى وجارها وتكوّرت فيه.

تمتمت عزيزة متذمّرة وهي تروح وتجيء في القفص: «سأريها قوّة منقاري!».

غطّت زيتونة أذنيها بكفّيها، ثمّ عادت واختلست النظر عندما سمعت قعقعة العربة. كان الجدّ صيّاح يأخذ درّاجته دائماً، ما لم يكن يبيع الخضار التي قطفها من حديقته. فلماذا يأخذ العربة الخالية الآن؟ ماذا ينوي أن يفعل؟ غير أنّها حاولت ألّا تكترث. أغمضت عينيها وتكوّرت على نفسها أكثر. بقيت ساكنة لمدّة طويلة، لكنّها نهضت في النهاية وتسلّلت من تحت البوّابة. كان الجدّ صيّاح يقترب من مركز كبار السنّ. لم تستطع أن ترى جيّداً، لكن يبدو أنّه كان يحاول سحب السلّم الفولاذي ووضعه على العربة. انخفض الجزء الخلفي من العربة على الأرض وارتفع

مقبضها في الهواء، فتحرّكت العجلات وانزلق السلّم عن العربة، وكاد الجدّ صيّاح أن يتعثّر. حاول مرّة أخرى، وكانت النتيجة نفسها.

حدّقت زيتونة إليه، وتقدّمت بضع خطوات، ثمّ ما لبثت أن دنت أكثر. كانت تقترب من مركز كبار السنّ الآن هي الأخرى. فرأت الجدّ صيّاح يضع شيئاً ما خلف العجلة لتثبيتها، قبل أن يرفع أحد طرفَي السلّم، وساعده أحد المارّة في حمله وتثبيته على العجلة. أخيراً، بدأ يسحب العربة وقد ثنى ظهره إلى الأسفل. كان السلّم الفولاذي أطول بعدّة مرّات من العربة، ولذلك دفع العربة ببطء، وهو يجرّ السلّم على الأرض. بقيت زيتونة في مكانها وشاهدت العرق يتصبّب من وجهه ورقبته، فيما بدت شفتاه متشقّقتين وشعره مكسوّاً بالغبار. أمرها قائلاً: «ابتعدي جانباً».

غير أنّ زيتونة واصلت التحديق إليه.

«قلت لك تحرّكي».

لم تبارح مكانها على الأرض. ولو استطاعت التحدّث، لطلبت منه أن يكفّ عن إطلاق الأوامر. حدّقت إليه مطوّلاً. ومع أنّها لم تخطّط للقيام بذلك، إلّا أنّها شعرت بالارتياح.

صرخ الجدّ: «ابتعدي عن الطريق!».

فجأة، اقشعرّ وبرها واتّخذت تلقائيّاً وضعيّة الهجوم.

«كيف تجرؤين!» بدأ بسحب العربة نحوها، لكنّها لم تتزحزح. غير أنّ خطواته وثقل العربة دفعها جانباً. فسقطت في

جدول مجاور للطريق. كانت قادرة على القفز من فوق الجدول لتحطّ على السدّ لو أنّها تحرّكت بشكل أسرع قليلاً، لكنّها شعرت بالانتعاش لوجودها في الماء.

عادت إلى المنزل، مبلّلة وقذرة، ولم يلق عليها الجدّ صيّاح نظرة أخرى. كان السلّم على الأرض، بينما ارتخى على الكرسيّ مثل الغسيل الرطب. وكان سيبقى على هذه الحال حتّى حلول الظلام لو لم تدخل امرأة الفناء فجأة.

صاحت المرأة قبل أن تتمكّن زيتونة من النباح: «أين تلك الكلبة؟».

نظر إليها الجدّ صيّاح حائراً.

«تلك الكلبة، ألم تأت إلى هنا؟»، وطعنت الهواء بإصبعها.

اقتربت زيتونة ببطء، وهي على أهبة الاستعداد، بينما ضاقت عينا الجدّ صيّاح متسائلاً: «ما خطبك؟».

«لقد هربت تلك الكلبة اللعينة، بعد أن عضّت زوجي!».

اعتدل الجدّ صيّاح في جلسته ببطء، وراحت زيتونة تنقل نظرها بينه وبين المرأة، لاوية رأسها. تمتم الجدّ: «ما الذي تتحدّثين عنه؟ ما خطبكم أيّها الناس؟ ألم يسبق لكم أن اقتنيتم كلباً من قبل؟».

كانت المرأة تتجوّل في الفناء غاضبة وهي تنظر إلى داخل الوجار، والقفص السلكي، وحتّى المطبخ. «أين تختبئ هذه الكلبة؟ سترى حين أمسك بها».

هل كانت تتحدّث عن كوري، أم أنّها تبحث عن كلبة أخرى؟ كيف تجرؤ هذه الغريبة على الدخول والكلام بهذا الشكل؟ بدأت زيتونة بالنباح.

قال الجدّ ملوّحاً لها بيده: «هسّ يا زيتونة»، فصمتت. «أين ذهبت الكلبة؟».

صاحت المرأة: «لا تسألني! لقد أتت إلى هنا».

قال لها الجدّ: «أنا لم أرها منذ أن أخذها زوجك، والذنب ليس ذنبي حتّى وإن هربت».

«لقد عضّته. أنا أحتاج إلى حفنة من فرائها، على الأقلّ».

«اذهبي إلى المستشفى. ما فائدة الوبر؟». نهض الجدّ صيّاح ببطء وفتح القفص السلكي. فخرجت عزيزة منه بسرعة وتسلّقت الأواني الفخّارية. فتح الباب للدجاجة والكوخ وحتّى باب المنزل. «انظري، لقد بعت عدداً لا يحصى من الجراء خلال حياتي، ولم أعامَل يوماً بقلّة احترام!».

تجاهلته المرأة ودخلت المنزل. في تلك اللحظة، وصل تاجر الكلاب، ويده ملفوفة بضمّادة بيضاء. على الفور، اندفعت زيتونة نحو الرجل. فقفز إلى الخلف، وصاحت زوجته وهي تلوّح بيديها بعد أن خرجت لترى سبب الجلبة. كانت زيتونة ستعضّه بكلّ سهولة لو أنّ الجدّ صيّاح لم يمسكها من عنقها.

سأله تاجر الكلاب: «ألم تعد الكلبة إلى هنا؟».

«هل أنت جادّ؟». حاول الجدّ صيّاح جرّ زيتونة إلى داخل

القفص السلكي. فأخذت تحفر الأرض بقوائمها. كانت مصمّمة هـذه المـرّة علـى النيـل منه، لكـنّ قبضة الجدّ صيّـاح كانت قويّة جدّاً. شـعرت أنّ عينيها سـتخرجان من محجريهما، حتّى إنّها لم تعد قادرة على النباح.

«مهلاً، أليس هذا حذاؤك؟». صدر السؤال عن المرأة وهي تشير إلى الحذاء القديم المعلّق على القفص السلكي.

دار رأس زيتونة، بينما توقّف الجدّ في مكانه مسـتغرباً. أمّا تاجر الكلاب، فبدا مضطرباً، وخيّم عليهم صمت قصير.

سألته المرأة: «لمَ هو هنا؟».

سألها تاجر الكلاب متلعثماً: «ماذا تقصدين؟».

«تذكّـر، لقـد عـدتَ إلى المنزل مرّة مـن دون حذاء منذ مدّة طويلة. لمَ هو معلّق هنا؟» ومدّت يدها لأخذه.

ضاقت عينا الجدّ صيّاح، وقفز قلب زيتونة من مكانه.

شـدّ تاجـر الـكلاب بذراع زوجته قائـلاً: «ما الذي تقولينه يا امرأة؟».

قـال الجـدّ صيّـاح وصوتـه يرتجـف غضباً: «مهـلاً». حبس زيتونـة فـي القفص، فراقبـت يديه اللتين ترتعشـان بترقّب. انتزع فردة الحذاء عن القفص ورفعها عالياً، ثمّ سأل المرأة: «هل أنت واثقة من أنّ هذا حذاء زوجك؟».

«حسـناً... هـذا...» تلعثمـت المرأة وهـي تنظر إلى زوجها، الذي بدأ يتململ.

«فهمـت. هكـذا إذاً. لهـذا السـبب تتصـرّف كلبتي على هذا النحو كلّما رأتك».

«ماذا؟ ما الذي تقوله؟ هذا ليس حذائي». هزّ تاجر الكلاب رأسه وهو يتراجع إلى الخلف.

«اللـصّ الـذي سـرق كلّ كلابنـا أسـقط هـذا الحـذاء، وقد أحضرتـه زيتونـة إلـى البيـت. كم هذا غريب. تقـول زوجتك إنّه لك، بينما أنت تنكر ذلك؟».

قالت المرأة: «أوه، كلّا، كلّا، لا بدّ أنّني مخطئة».

احمرّ وجه تاجر الكلب ولم يعد يدري ما يقول. حمل الجدّ الحذاء القديم بإحدى يديه، وبدا كأنّه على وشك أن يوجّه لكمة لتاجر الكلاب.

صاح التاجر وهو يتراجع من الفناء: «لا تتّهم رجلاً بريئاً!».

صـرخ الجـدّ صيّـاح بصـوت هـادر: «لصـوص! محتالون!» ورمى الحذاء خلفهما. فارتطم مباشرة بظهر تاجر الكلاب، الذي فـرّ هاربـاً مـن دون أن ينظـر خلفـه. أمّا المـرأة، فوقفت في حالة ذهول، قبل أن تبتعد ببطء هي الأخرى.

تنفّس الجدّ صيّاح بصوت عالٍ محاولاً تهدئة نفسـه. حدّق إلـى البوّابـة، وتمتـم قائـلاً وهـو ينهار علـى كرسـيّه: «أيّها اللصّ المخادع».

كان هـذا كلّ شـيء، لـم يفعـل شـيئاً آخـر. أهكذا سـتنتهي المسـألة؟ الآن بعد أن عرف من يكون اللصّ، ألا يمكنه إجباره

علـى إعـادة أسـرتها بأكملهـا؟ كيـف يتركـه يفلـت بفعلتـه بهذه البساطة؟ أخذت تضرب برأسها على القفص السلكي وتزمجر.

تمتم الجدّ: «كنت أعرف! زيتونة، أنت مذهلة».

خفّفت هذه الكلمات من حدّة الغضب الذي يعتمل بداخلها. لطالما أحزنها وأغضبها. جعلها وحيدة في هذا العالم، لكنّها لم تتمكّـن يومـاً مـن تركه. لمَ يا ترى؟ اتّكأ الجدّ صيّاح مجدّداً على ظهر كرسـيّه. وجعلته الشـمس الساطعة يبدو شفّافاً وخفيفاً، مثل المـلاءات القطنيـة التـي جفّفتها الشـمس. لم تكـن زيتونة واثقة ممّـا إذا كانـت تعرفـه أم لا. فربّمـا كان دائماً غريباً بالنسـبة إليها. استلقت ومدّت قوائمها. جفّ فراؤها في خصل متصلّبة، ولكنّها لم تنفض عنها التراب أو تشتكي من سجنها في القفص.

بعـد فتـرة وجيزة، مالت الشـمس نحو المغيب. وبدأ نسـيم المساء البارد بالهبوب.

رفرفت عزيزة بجناحيها من شـجرة الكاكي وصاحت قائلة: «إنّها كوري! كوري آتية!».

رفعت زيتونة رأسها.

هتفـت الهـرّة العجوز من أعلـى الجدار: «هذا مدهش! كلبة تعود بعد أن تمّ بيعها؟».

هل عادت كوري؟ هبّت زيتونة واقفة ونظرت إلى البوّابة. لم تستطع أن ترى جيّداً من داخل القفص. رأت الجدّ ينهض ببطء، عابساً. وضعـت كفّيهـا على القفص وهزّته، فقد اشـتمّت رائحة

صغيرتهـا، لكـنّ الرائحة كانت غريبة. مرّرت كوري جسـدها من تحت البوابة واقتربت منها، وقد بدت مضطربة، وعيناها غائرتين.

مدّت زيتونة يدها لتلمس كوري. «ما الخطب يا حبيبتي؟».

كانـت نظـرات كـوري تائهة وأنفها جافّاً، كما سـالت رغوة بيضاء من فمها. هُرع الجدّ صيّاح ليفحص الجروة. فجأة، غابت عيناها وانهارت.

نبحت زيتونة.

«ماذا-؟» احتضن الجدّ صيّاح كوري وفتح فمها. حدّق إلى عينيهـا ووضـع أذنـه على بطنها. كانت زيتونة تروح وتجيء بينما حمل الجدّ الصغيرة إلى المطبخ.

«أحضرها إليّ!» هزّت زيتونة القفص بكلّ قوّتها.

قاقت عزيزة: «كيف يمكن أن يحدث ذلك؟» وأخذت تروح وتجيء بين المدخل والقفص. «ما يجري لا يبشّر بالخير».

قفزت الهرّة العجوز بقلق إلى الفناء.

تنهّـدت عزيـزة قائلة: «سـبق أن رأيت ذلـك في بلدتي، هذا سيّئ حقّاً».

نظـرت الهـرّة العجوز إلى زيتونـة، وقالت مطَمْئنة: «الأولاد يتأذّون أحياناً. هكذا يتعلّمون ويكبرون».

صاحت زيتونة: «أخرجني من هنا!».

قالت عزيزة: «ولكن إذا خرجتِ، فأنا التي سأُسجن».

عوت زيتونة: «كوري! ماذا حلّ بك؟».

«لم يعجبني هذا المكان. لا أريد أن أسجن ثانية».

هسّت الهرّة العجوز: «أيّتها الدجاجة الغبيّة! ليتني أستطيع إسكاتك!».

«ماذا؟ ماذا قلت أيّتها الهرّة الحمقاء؟» بدأت عزيزة تطاردها وهي تصفّق بجناحيها، فهربت الهرّة. اندفعت الدجاجة بسرعة لدرجة أنّ الهرّة العجوز لم تستطع القفز إلى أعلى الجدار. فركضت حول الفناء قبل أن تتمكّن من التسلّل من تحت البوّابة.

عاد الجدّ صيّاح بعد وقت طويل. «اخرجي يا زيتونة».

هرعت إلى المطبخ حالما فتح لها الجدّ البوّابة. وجدت كوري ممدّدة على بطّانية، وكان تنفّسها خفيفاً وصدرها يرتفع بشكل مخيف. فاحت منها رائحة كريهة، وكانت تقرقر. كان بجانبها حوض ماء دافئ وملعقة خشبية طويلة.

شرح لها الجدّ وهو يتنهّد: «لقد أكلت شيئاً ضارّاً، ربّما كان فأراً مسموماً أو عظم دجاجة...»، ثمّ مرّر يده برفق على بطن الجروة الذي كان يعلو وينخفض.

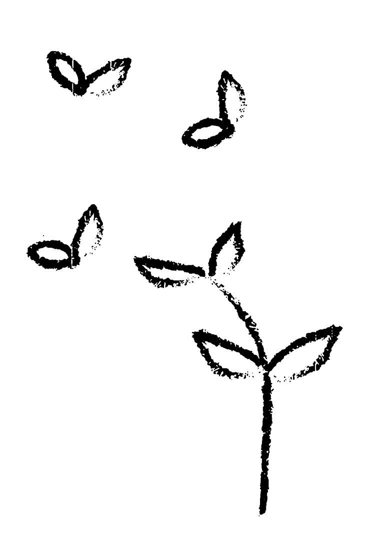
نظرت زيتونة إلى عينيّ صغيرتها. كانتا غائمتين، لكنّها عرفت أمّها. لقد فات الأوان على سؤالها عمّا حدث. لماذا لم يعد أحد منهم؟ ولماذا، عندما عادت إحداهم، وصلت بهذا الشكل؟

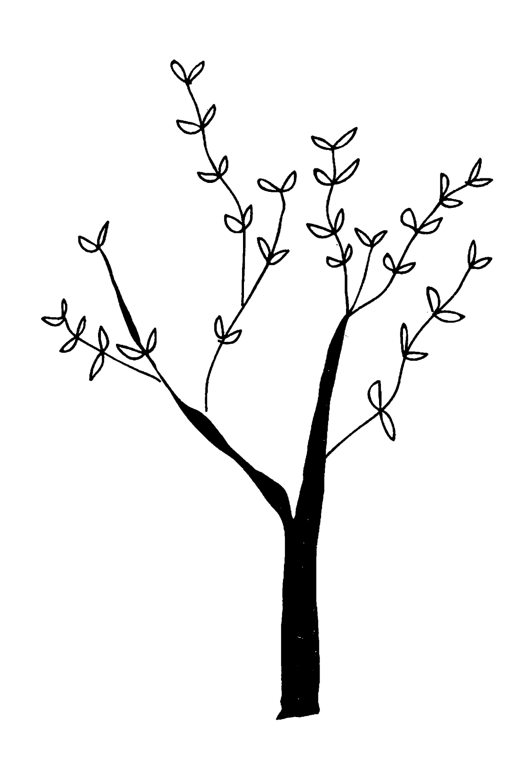
صدر أنين ضعيف عن كوري: «أمي...».

اقتربت زيتونة من الجروة الصغيرة، فقد أرادت أن تصغي إلى صوتها بكلّ كيانها. «ستكونين بخير يا صغيرتي. لا تخافي».

تصلّب جسد كوري، ثمّ رفعت رأسها. هل كانت تتحسّن؟ فجـأة، تدفّـق دم أحمـر داكن من فمهـا، وفاحت رائحة رهيبة في جميع أنحاء الغرفة. بدا كما لو أنّ الحزن المتجمّع في جسـدها قد تحرّر.

قبـل أن تجـفّ الدمـاء على الفوطة، وقبـل أن تتبدّد الرائحة الكريهة، توقّفت كوري عن التنفّس. لعقت زيتونة وجهها المنهك وبقيت بجانبها. فغطّى الجدّ صيّاح الجروة ببطّانية، وترك زيتونة تمضي بعض الوقت بمفردها مع صغيرتها.





السلّم الحلزوني

اشتكت عزيزة قائلة: «لم تكن حياتي هكذا في السابق، لم يكن أحد يراقبني. كيف أصبحت حياتي على هذا النحو؟» ثمّ نتفت ريشها على نحو مثير للشفقة.

اقترحت عليها الهرّة العجوز قائلة: «انتفي مزيداً من الريش».

«أيّتها الهرّة الخبيثة!».

«احذري، لا يمكنك الوصول إليّ». وضعت الهرّة العجوز كفّيها على القفص السلكي. فاندفعت إليها عزيزة، لكنّ الهرّة ابتعدت.

بدت عزيزة مكتئبة: «لماذا تُساء معاملتي على هذا النحو؟».

لم تعرهما زيتونة أيّ اهتمام، لا هي ولا الجدّ صيّاح. فخلال اليومين الماضيين، ركّز الجدّ على عمله في الفناء. كان يلحّم الفولاذ، ويطلق دخاناً أزرق. اندلعت شعلة اللحام، فأجفلت زيتونة ورفّت عينيها. كلّما انفتح غطاء خزّان الأكسجين، أصدر هسيساً. نظرت زيتونة إلى الشعلة الملتهبة بدهشة. راقبت الجدّ وهو يعدّل الشعلة الحمراء لتتحوّل إلى شعلة زرقاء خفيفة استخدمها لقطع الفولاذ وتلحيمه بقطعة فولاذية أخرى. وكلّما ومضت شرارة على المعدن الأحمر، كان الزجاج الأسود على

قناع الجدّ يلمع بالنار. تساقطت الشرارات على عنقه وملابسه، وأحرقتها مصدرة خيوطاً من الدخان الأبيض. تعجّبت زيتونة كيف أنّ النيران تترك دائماً آثاراً خلفها، حتّى لو انطفأت على الفور. كانت النار تجعل الفولاذ الصلب ليّناً ومطواعاً. كيف يمكن للجدّ أن يفعل كلّ ذلك على الرغم من جسده الهزيل والضعيف؟

تمتم الجدّ صيّاح وهو يضع شعلة التلحيم من يده وينزع القناع: «أحتاج إلى استراحة». كان وجهه يتصبّب عرقاً. جلس على كرسيّه وتناول كوب الماء، ولكنّه نظر إلى زيتونة. قال متأمّلاً: «أعتقد أنّ لدينا شراب أرزّ هنا في مكان ما، لا شيء يروي العطش مثله!»، ثمّ دخل وعاد حاملاً زجاجة بيضاء، وملأ كوباً وشربه.

اشتمّت زيتونة أداة التلحيم. كانت لا تزال دافئة ورائحتها معدنية. حفرت الرائحة في أعماق قلبها، وذكّرتها كم تحبّها. كان الجدّ صيّاح يصنع سلّماً بدرابزين ملتفّ حول عمود سميك في الوسط. كان قد نزع الدرجات الأصلية الصدئة ويقوم بقطع مربّعات من الفولاذ وتلحيمها معاً لصنع درجات جديدة يثبّتها بعناية. بدا راضياً، لكنّ زيتونة تعجّبت. لماذا يفعل ذلك؟ كان هذا العمل يستغرق وقتاً طويلاً.

«تعالي يا زيتونة». صبّ الجدّ صيّاح شراب الأرزّ في وعائها وجلس على كرسيّه.

لوت رأسها. كانت رائحته حامضة. ارتعش أنفها ثمّ وضعت

لسانها في السائل. وجدته حلواً، ولم يكن سيّئاً. فلعقته كلّه.

ابتسم الجدّ واستند إلى ظهر كرسيّه: «أتعلمين، أشعر بالنشاط عندما أرى الفولاذ. فبإمكانك صنع شيء قويّ منه إذا كنت تعرفين كيفيّة استخدام اللهب. عندما تجمعين الفولاذ ببعضه، لا يمكن أن يكون الجزء الملحّم أسمك من مقدار ملّمترين من اللوح الفولاذي. في هذه الحالة، لن يكون أملس، أترين؟ لكن عليك صنعه كما لو كان في الأساس قطعة واحدة. لا بأس بعملي، أليس كذلك؟».

تجشّأت زيتونة.

ضحك الجدّ صيّاح قائلاً: «لا أصدّق أنّني أشرب معك. كيف يعقل أن تكوني أنت رفيقتي؟ يا إلهي!». ثمّ أغمض عينيه.

استلقت زيتونة، وشعرت بالاسترخاء.

كانت عزيزة تتجوّل في قفصها وهي تتذمّر. تسلّلت الهرّة العجوز إلى الفناء، فقالت عزيزة وهي تصفّق بجناحيها منزعجة: «انتظري حتّى أخرج من هنا، سترين». لكن عندما حاولت الطيران، ارتطمت بالسقف وسقطت، فتطاير الريش في الهواء.

انخفض رأس الجدّ صيّاح على صدره، وتدلّت ذراعاه تحت الكرسيّ بينما تراقص شعره الأشيب بفعل النسيم. نظرت زيتونة إلى ذراعه النحيلة المكشوفة. كانت آثار أسنانها لا تزال ظاهرة، على الرغم من أنّ الجرح قد تعافى. فاقتربت ولعقت الندبة بلطف. أصبح الهواء بارداً مع غروب الشمس، فتكوّر الجدّ في نومه. لم توقظه مناكفات الدجاجة والهرّة ولا رنين الهاتف في

الداخل. ألن يستيقظ أبداً؟ كلّ الجراء التي ماتت سكنت تماماً قبل أن تتصلّب.

هتف طفل: «جدّي!».

نهضت زيتونة لترى دونغي يدخل وهو يقفز، تتبعه الجدّة، حاملة حوضاً على رأسها، ثمّ وصل دخل تشانو وزوجته في أعقابهما.

«زيتونة!» ابتسم دونغي ومدّ لها ذراعيه، فاندفعت إليه. عانقها بقوّة، وجعلتها رائحته الحلوة تشعر بالسلام.

«كيف تنام هنا هكذا مع أنّك لست على ما يرام؟». وضعت الجدّة الحوض على الأرض وأيقظت الجدّ صيّاح. فتح الجدّ عينيه وبدا متعباً، لكنّ وجهه أشرق بابتسامة عندما رأى دونغي.

ركض الصبيّ الصغير إلى الجدّ الذي نهض واقفاً وحمله بين ذراعيه. «لقد عدتَ إلى البيت باكراً!».

صاح دونغي: «ميلاد سعيد!».

رقص الجدّ صيّاح حاملاً دونغي بين ذراعيه. «ذكرى ميلادي غداً، ولكن يمكن أن تكون في أيّ وقت ما دمت هنا تحتفل معي!» ودار حول نفسه. ركضت زيتونة خلفهما، وقد شعرت براحة أكبر بوجود الصبيّ الصغير.

«أبي، لقد أتينا!» كانت شقيقة تشانو، التي وصلت مع أسرتها. ركضت ابنتها يوني، فحمل الجدّ صيّاح دونغي بإحدى ذراعيه وحفيدته بالذراع الأخرى، وواصل الرقص.

أشار تشانو إلى السلّم الفولاذي: «ماذا هذا؟».

وضع الجدّ صيّاح الطفلين أرضاً والتقط مطرقته. ضرب بها على الأجزاء الملحّمة للتأكّد من أنّها انصهرت كما ينبغي. «حسناً، والآن، ساعدني قليلاً».

حفر تشانو حفرة تحت شجرة الكاكي، بينما جمع صهره الأدوات المتناثرة في الفناء.

أتى دونغي ووضع قدمه على السلم. «ما هذا يا جدّي؟».

«إنّه سلّم، سلّم حلزوني!».

«حلزوني؟».

أجاب الجدّ صيّاح: «هذا صحيح. فقلب قوقعة الحلزون يلتفّ على نفسه بهذا الشكل».

«إذاً، هذا سلّم للحلازين!».

ضحك الجدّ صيّاح: «بل هو لك يا دونغي! ولك أيضاً يا يوني. إنّه لكما لكي تتسلقّاه بحذر وبطء، مثل الحلزون. لقد صنعته لكما حتّى تتمكّنا من الصعود إلى أعلى الشجرة. وعندما تنضج الكاكي، يمكنكما قطفها بنفسيكما».

«أنت تقطفها لنا».

«هذا صحيح. ولكن...».

«ولكن ماذا؟».

«إذا لم أكن هنا، لا يمكنني أن أقطفها لكما. لذلك سيكون عليكما قطفها بنفسيكما».

«ولماذا لا تكون هنا؟ أنت هنا!» وربّت دونغي على صدر الجدّ صيّاح ضاحكاً.

وقف الجميع بصمت قبل أن يعودوا إلى أعمالهم. حفر تشانو الحفرة، ووضع صهره الأدوات في الكوخ، بينما غسلت الجدّة الخضار، ودخلت المرأتان المطبخ.

أمّا زيتونة، فتسلّلت مبتعدة.

قالت الهرّة العجوز من أسفل الجدار: «تبّاً. الخيانة مؤلمة».

قالت زيتونة: «كلامك غريب، أنا لا أفهم ما الذي تتحدّثين عنه».

«أنا أعني أنّك لا تستطيعين الوثوق بأيّ شخص في هذا العالم».

نظرت زيتونة إلى الهرّة العجوز. كانت تعرف تماماً هذا الشعور.

فركت الهرّة العجوز عينيها وأنفها. «هل أبدو كبيرة جدّاً في السنّ؟».

لم تجبها زيتونة.

«أعني، نظري يضعف، وكذلك حاسّة شمّي».

سألتها زيتونة: «وما العيب في التقدّم في السنّ؟».

قالت الهرّة ساخرة: «هذا بالضبط ما قصدته، ما العيب في التقدّم في السنّ؟ لقد عشت عشر سنوات مع مالكتي، لكنّها أحضرت إلى البيت هرّة جديدة. هل تعرفين ما أشعر به؟».

شعرت زيتونة بالحزن على الهرّة العجوز. فلولا رائحتها المثيرة للغثيان، لربّما نسيت أنّها كانت هرّة.

«أنا أنوي التخلّص منها، فهي تحتلّ مكاني». ثمّ استدارت

لتنصرف بكتفيها المتدلّيين، وهي تجرّ ذيلها على الأرض.

كان الرجال يرفعون السلّم.

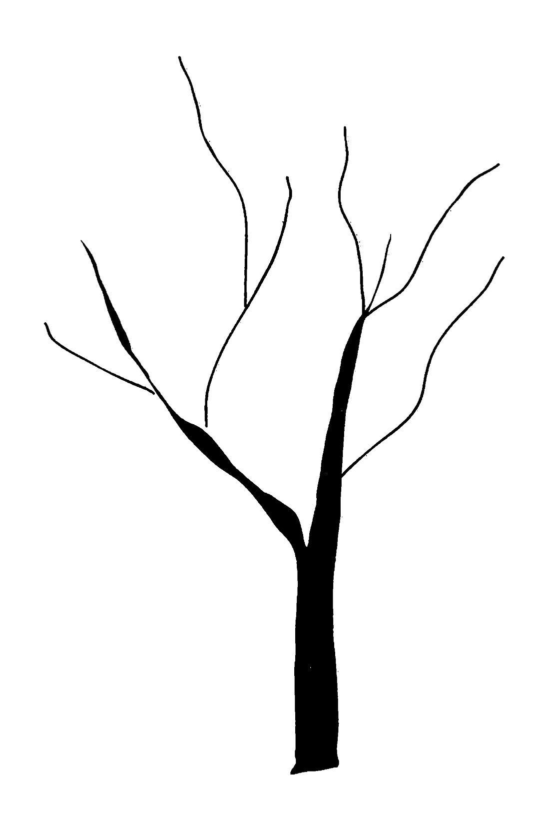
قال تشانو: «كن حذراً، أمسكه جيّداً».

أجاب الجدّ: «لقد أمسكتُ به. صبّ الإسمنت في الحفرة».

قال صهره: «يبدو رائعاً! يجدر بك طلاؤه - ربّما باللون الأزرق».

نظرت زيتونة إلى عمل الجدّ صيّاح وهو يُنصَب بجانب الشجرة. التفّ السلّم الفولاذي حول شجرة الكاكي. عند تسلّقه درجة تلو الأخرى، يمكن للمرء الدوران حول الشجرة الكبيرة مرّة واحدة، والوصول إلى قمّتها على الدرجة العاشرة. بدا السلّم وكأنّه يحمي الشجرة أو يستند إليها. وكانت منحنياته اللطيفة تشبه إلى حدّ ما الجدّ صيّاح، الذي وقف محنيّ الظهر، ينظر إلى سلّمه.





صديقتان

صرخت زيتونة موبّخة: «اخرجي من هنا حالاً!».

تجاهلتها عزيزة، كما تفعل دائماً. فهي تعتقد على ما يبدو أنّ بإمكانها فعل ما تريد. نقرت الملفوف في حديقة الخضار، وقفزت على الأواني الخزفية، وأكلت السمك المبسّط هناك ليجفّ. وبحسب الهرّة العجوز، ذهبت حتّى إلى المنزل المجاور لسرقة طعام الهرّة الجديدة.

تمتمت زيتونة: «أنت مصيبة!».

صاحت الدجاجة وهي ترفرف لتحطّ على شجرة الكاكي: «بل أنت المصيبة! لمَ لا تكفّين عن مضايقتي؟ ألا يمكنني العيش بسلام؟». كانت تزداد سمنة يوماً بعد يوم، ولكنّها ظلّت قادرة على الطيران بخفّة.

قفزت الهرّة العجوز من الحائط إلى السطح لتفاديها. «انتظري وسترين، أنا أتحيّن الفرصة وحسب...».

ضحكت عزيزة قائلة: «ليس بوسعك سوى الكلام. هل تعتقدين أنّني خائفة منك؟ أثبتي أنّك لست قطّة جبانة. بدلاً من الهرب، لمَ لا تواجهينني؟»، ثمّ نفخت صدرها وذهبت نحو الحائط مهدّدة.

فما كان من الهرّة العجوز إلّا أن تراجعت واختفت.

تنهّدت زيتونة وذهبت إلى وجارها. أين الجدّ صيّاح؟ أجبرت نفسها على تناول الطعام البارد والجافّ الموضوع في وعائها على الرغم من أنّها لم تشعر بأيّ شهيّة. كانت الجدّة قد صبّته لها عند الفجر، غير أنّ الدجاجة ستستولي عليه إن لم تأكله، وقد يكون هذا كلّ ما ستحصل عليه لهذا اليوم. في الواقع، لم تكن قد رأت الجدّ صيّاح منذ بضعة أيّام. وحدها الجدّة كانت تغادر باكراً وتعود ليلاً إلى البيت، الذي ظلّ غارقاً بالسكون. تمطّت زيتونة وارتجفت، ثمّ عادت إلى الخارج.

انزلقت الهرّة العجوز على أنبوب الصرف وقالت: «هل أنت ذاهبة إلى محطّة الحافلات مجدّداً؟ لا جدوى من ذلك، كما تعلمين».

مرّت بها زيتونة من دون أن تجيب، وانزلقت من تحت البوّابة. لعقت الهرّة العجوز شفتيها ومشت خلفها، على طول السدّ. كانت قد أصبحت هزيلة منذ وصول الهرّة الصغيرة؛ والآن باتت تتسكّع في الخارج معظم الوقت. وقفت زيتونة إلى محطّة الحافلات وراقبت السيّارات وهي تمرّ. واصل بعضها السير، بينما توقّف البعض الآخر، لكنّ الجدّ صيّاح لم يأت. هذا ما حدث يوم أمس، وكذلك واليوم الذي سبقه. فكانت تستسلم وتعود إلى المنزل، وفي آخر النهار، تعود الجدّة وتضيء المصابيح، وتطعمها.

أُنيرت مصابيح الشارع، فعرفت أنّ وقت العودة قد حان. في بعض الأحيان، كانت تشعر أنّ انتظار الجدّ صيّاح يشبه انتظارها لأمّها وإخوتها وصغارها من جديد. فمهما طال انتظارها، لم يكن يعود. رجعت زيتونة نحو المنزل، على طول الحائط. ركضت إليها الهرّة العجوز وهي تلهث، ورائحة كريهة تفوح منها كالمعتاد. فتوقّفت زيتونة.

قالت لها الهرّة: «احزري ماذا اكتشفت».

عبست زيتونة وقد انزعجت من ولع الهرّة بالتحدّث بالألغاز. لكان من الأسهل لو أنّها تصل مباشرة إلى لبّ الموضوع، لأنّها ستشرح قصدها في النهاية.

قالت لها الهرّة العجوز مبتسمة: «ماذا يمكنك أن تفعلي من أجلي؟».

رمقتها زيتونة.

حاولت الهرّة العجوز مجدّداً: «زيتونة، ماذا ستفعلين من أجلي إذا أخبرتك بشيء مهمّ؟».

«ماذا تريدين؟».

«همم. حسناً... ليس لديك شيء ذو قيمة...».

«كفى، لقد سئمت من ألاعيبك».

«أوه، أنا أعرف. بإمكانك أن تكوني صديقتي، صديقتي التي لن تخونني. صديقة حقيقية».

«لكنّني كلبة، وأنت هرّة».

«هذا ما يجعل صداقتنا أكثر تميّزاً».

قالت زيتونة وقد ضاقت بها ذرعاً: «أنا ذاهبة، لا يمكنني ترك المنزل خالياً».

«أوه، لا تقلقي، فتلك الدجاجة الثرثارة هناك. سألقّنها درسها عمّا قريب، كما تعلمين، فمالكتي مستاءة للغاية لأنّها لا تكفّ عن نقر هرّتنا الصغيرة اللطيفة».

شخرت زيتونة ساخرة واستدارت عائدة إلى المنزل.

«مهلاً، إلى أين أنت ذاهبة؟ لم تجيبيني ما إذا كنت تقبلين صداقتي».

«ولماذا قد أرغب في ذلك؟».

«حسناً، فلنرَ. لماذا؟».

هزّت زيتونة رأسها قائلة: «هذا سخيف».

ابتسمت الهرّة العجوز ووقفت في طريقها. «آه، تذكّرت الآن! الأبيض».

«عمّ تتحدّثين؟».

«جروك الأبيض، لقد عرفت أين يعيش. ألا تشعرين بالفضول لمعرفة كيف أصبح؟».

حدّقت زيتونة إلى عينيّ الهرّة العجوز. لم تصدّقها من قبل قطّ، فلمَ تفعل الآن؟ دعتها عينا الهرّة الكبيرتان واللامعتان إلى الوثوق بها. «جروي؟».

«أنا أعرف أين يعيش، هذا ما كنت أقوله لك».

خطت زيتونة نحوها، فقفزت الهرّة العجوز إلى الخلف. كانتا كلبة وهرّة في النهاية.

قالت الهرّة العجوز بعدما تمالكت نفسها: «لا بدّ أنّه حصل على بعض التعليم، فقد أصبح مهمّاً حقّاً. أصبح مشهوراً، فالجميع يعرفه!».

«وأين يعيش؟».

«ليس بعيداً من هنا. هل تعرفين الحضانة الواقعة خلف الكنيسة؟ خلفها يقع مصنع التوفو وعلى يساره الطاحونة. وبمجرّد اجتيازك الطاحونة، ثمّة مدرسة. أنت تعرفينها، ذلك المكان الذي يذهب إليه الأولاد. خلفها...» صمتت الهرّة ولم تكمل.

«ربّاه! إذاً؟ ماذا يوجد خلفها؟».

اعترفت الهرّة: «حسناً، في الحقيقة، أنا لا أعرف».

«ماذا؟ هل كنت تسخرين منّي؟».

«لا لا. لقد سمعت من هرّة أعرفها تعيش في منزل موسيقيّ في مكان ما خلف المدرسة. على ما أذكر، يعزف المالك على آلة موسيقية».

«مهلاً، وما علاقة ذلك بجروي؟ أنا لا أصدّق أنّني أصغي إليك. هذا مثير للشفقة». ثمّ دفعت زيتونة الهرّة العجوز جانباً.

اقشعرّ وبر الهرّة العجوز. «هناك يعيش الجرو! في منزل الهرّة!».

«يعيش هناك؟».

«بحسب مصادري، أجل».

«آه!» ابتسمت زيتونة واستدارت لمواجهة الهرّة العجوز التي

ابتسمت ابتسامة عريضة.

بـدأت زيتونـة تجـري، حتّى كادت أن تطير في الزقاق. ومع أنّ الظلام بدأ يخيّم، إلّا أنّها لم تشعر بالخوف. سيكون المنزل بخير. هـل سيتعرّف عليهـا؟ لا بـدّ أنّـه أصبح كبيراً جـدّاً الآن. تخيّلت زيتونة أموراً رائعة. حاولت أن تتبع تعليمات الهرّة، لكنّها لـم تكـن متأكّـدة تماماً إلى أين ينبغي أن تتّجه. كانت قد تجوّلت بالقرب من المدرسـة من قبل، لكنّ المشـكلة تكمن بعدها. فهي لم تسـتطع أن تخمّن أين يعيش الموسـيقيّ. أصبح الظلام دامساً بحيث لـم تعد ترَ شيئاً، كما أنّها تركت المنزل خالياً. من الأفضل لها أن تعود غداً، خلال النهار. استدارت على مضض، وهي تنظر إلى الوراء تكراراً. سـلكت طريق المنزل، ووعدت نفسـها بفعل كلّ ما تريده الهرّة العجوز عندما تراها. بالتأكيد، كان من الغريب بعض الشيء أن تصادق هرّة، لكن بإمكانها بسهولة إثارة غضب عزيزة لإرضاء صديقتها الجديدة.

أمـا مـن أحـد في المنـزل؟ توتّـرت زيتونة وهي تسـير نحو البوّابة. كان يجب أن تكون الجدّة في المنزل الآن، لكنّ النوافذ كانت مظلمة والمنزل لا يزال سـاكناً. وقف وبرها منذراً بوجود خطب ما. ما تلك الرائحة الكريهة؟

نادت: «ما كلّ هذا الهدوء؟ عزيزة!».

لم يجبها أحد.

وقفت زيتونة في وسط الفناء وهي تنظر حولها وقالت: «كفّي عـن المـزاح واخرجـي!» حدّقت حولها ورفعت أذنيها. سـمعت

صوتـاً آتيـاً مـن قرب نبتـة اليقطين بجوار الحائـط، فركضت إلى هناك. وكلّما اقتربت، أصبحت الرائحة أقوى.

«زيتونة...».

إنّهـا الهـرّة العجـوز، كانـت تحتضـر. إلى جانبهـا، وجدت عزيزة، التي كانت متصلّبة أساساً.

أنّت الهرّة العجوز قائلة: «تبّاً، لقد تمكّنَت منّي».

«انهضـي!» ضربـت زيتونـة بقوائمها، لكنّهـا لـم تعرف ما إذا كان الأوان قد فات.

«لا تخبـري أحـداً أنّـي قضيـتُ على يد دجاجـة، مفهوم؟» أصبحت أنفاس الهرّة العجوز متقطّعة.

أومأت زيتونة برأسها موافقة: «كوني قوية»، ثمّ لعقت جراح الهرّة.

رفّـت الهرّة العجـوز بعينيها، محاولة أن تبقيهما مفتوحتين.

«آه، انظري... أنت تتوهّجين مجدّداً. قلت لك إنّك مختلفة».

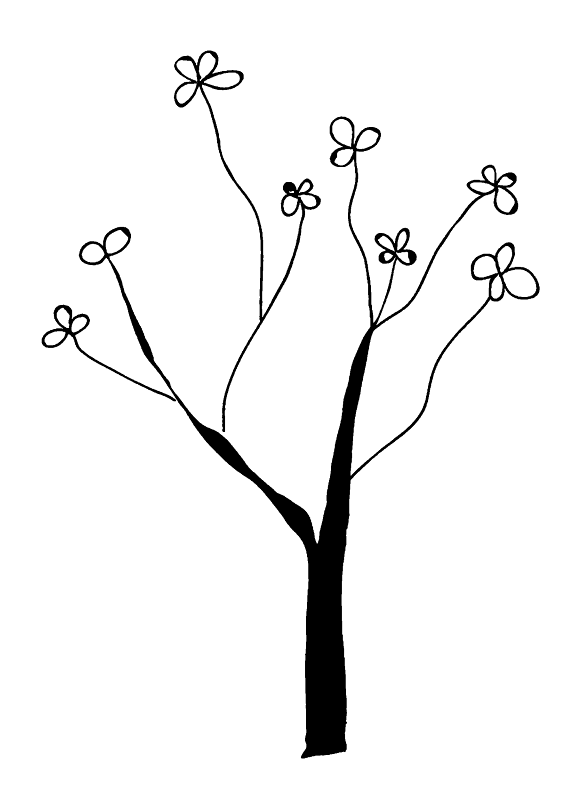
«أنا متأكّدة من أنّ عينيك تخدعانك».

«كلّا، كلّما ازداد الظلام، أراك بشكل أفضل».

نظـرت زيتونـة إلـى كفّيهـا الأماميتين، وبدا فراؤهـا مختلفاً بالفعـل. أهـي كلمـات الهرّة العجوز، أم أنّـه ضوء القمر؟ أخيراً، توقّفت الهرّة عن الارتجاف.

«استيقظي!» هـزّت الهـرّة، ولكنّهـا لـم تفتـح عينيها مجدّداً. جلسـت زيتونة سـاكنة لوقتٍ طويل، وقد سـيطر عليها الذهول. بالنسـبة إليهـا، كانت الهرّة العجـوز دائماً جارة مزعجة وحقودة،

ولـم تكـن صديقـة يوماً. لكنّهـا عرفتها لوقت طويـل. وغداً، لن تطـلّ عليهـا مـن أعلى الحائـط. اغرورقت عيناهـا بالدموع. فقد أصبحـت وحيـدة تمامـاً. حملت بفمها جثّـة الهرّة، التي كانت لا تـزال دافئـة، وذهبـت إلى المنزل المجاور. كانـت تعلم أنّ الهرّة العجوز سترغب في العودة إلى البيت، حتّى بعد الموت.



شتاء صعب

قاق، قاق، قاق.

فتحت زيتونة عينيها ونظرت. آلمها جسدها من كثرة ما تكوّرت على نفسها في البرد. كان طائر العقعق ينظّف ريشه على شجرة الكاكي المغطّاة بالصقيع. تدلّت من أعلاها بضع حبّات من الفاكهة، وبدت حمراء على نحو غير عادي. كانت النوافذ لا تزال مغلقة، إذ لم يعد أحد إلى المنزل أمس. بدا وعاؤها فارغاً وأكثر برودة من المعتاد. ذهبت إلى كرمة اليقطين، وتذكّرت أنّ عزيزة بقيت تحت الأوراق المتجمّدة. لم يكن جسدها يحمل أيّ علامات. لا بدّ أنّ الهرّة العجوز قضت عليها بسرعة. بدت كأنّها نائمة وحسب تحت غطاء من الصقيع. نظرت زيتونة إلى الحائط، الذي كان يلمع بفعل الصقيع هو أيضاً. لم يكن ثمّة هرّة عليه. إذاً، فالليلة الماضية لم تكن حلماً.

خرجت زيتونة من حديقة الخضار. كان كلّ الملفوف متجمّداً. لو كان الجدّ صيّاح هنا، لما ترك ملفوفاً في الحقول. ليس هذا فحسب، بل لما كانت أوراق الأشجار مكدّسة في الفناء، ولما كان باب الكوخ مفتوحاً يقعقع، ولكان صنبور الماء مغلقاً بإحكام بدلاً من تسرّب قطرات ماء منه طوال اليوم. كذلك،

ما كانت زيتونة لتتضوّر جوعاً. تمطّت وخرجت أنفاسها على شكل هبّات بيضاء، قبل أن تتلاشى في الهواء. كان عليها أن تفعل شيئاً، مع أنّها تشعر بالبرد والجوع. هل ستتعرّف عليه؟ غادرت المنزل، وعادت أدراجها على الطريق الذي أتت منه في الليلة الماضية. لكنّها تاهت مجدّداً خلف المدرسة. أين يمكن أن يكون منزل الموسيقيّ؟ وما معنى موسيقيّ أساساً؟

كانت مستعدّة للانتظار طوال اليوم إذا ما اضطرّها الأمر. إذا كان قد كبر ليصبح كلباً يعرفه الجميع، فلا بدّ أن تتعرّف عليه هي أيضاً. ففي النهاية، كان صغيرَها. راحت زيتونة تذرع الشوارع ذهاباً وإياباً لتشعر بالدفء. مشت على كلّ الطرقات المحيطة بالمدرسة. وبما أنّ صغيرها قد يسلك اتّجاهاً مختلفاً، فقد نظرت حولها وهي تتنقّل. لم تجد الوقت للتفكير في مدى إحساسها بالبرد والجوع. أخيراً، توقّفت أمام محلّ الأزهار، مذهولة. ها هو ذا، الكلب الأبيض. كان كبيراً، بأذنين مستقيمتين وقوائم طويلة. لكنّها أدركت أنّ الكلب الذي تحدّق إليه يمتلك فراء أطول من فراء الكلب الأبيض. كما كان بياض فرائه مشوباً بمسحة من اللون البنّي. ابتسمت زيتونة. ها هو ذا، وقد بدا شبيهاً بأبيه إلى حدّ كبير. على الرغم من ذلك، لم تستطع تسميته صغيراً، فقد كبر تماماً. نبض قلبها وهي تمعن التحديق إليه بينما كان يسير نحوها. فهمت الآن ما قصدته الهرّة العجوز، فقد كان يقود سيّده، الذي لا يبصر، بتعبير واثق، مرتدياً مقوداً من الجلد. «يا صغيري...». قالت ذلك بصوت خفيض، غير راغبة في تشتيت انتباهه.

مرّ بها من دون أن يسمعها، ولم تمانع في ذلك. طار قلبها فرحاً وهي تراقبه يمرّ من أمامها، بخطوات خفيفة، بينما اهتزّ ذيله بسرور. لقد كانت الهرّة العجوز صديقة حقيقية. حتّى الآن، اعتقدت أنّ جميع صغارها لاقَوا مصيراً رهيباً، لكنّها أدركت أنّها كانت مخطئة. فها هو أحد جرائها قد كبر ويعيش حياة كريمة.

تبعته زيتونة على مسافة منه، إلى أن وصلت إلى الطريق المتفرّع أمام متجر الجدّ صيّاح. وعندما انعطف جروها في شارع لم تسلكه من قبل، توقّفت. ذكّرها متجر الجدّ المغلق بمنزلها الخالي، وأدركت أنّها لم تعد شابّة بما فيه الكفاية للتجوّل على أرض غير مألوفة.

«وداعاً، أيّها الصغير». أومأت زيتونة برأسها لجروها الذي تابع طريقه بمرح، ثمّ استدارت من دون أن تنظر إلى الوراء.

عندما وصلت إلى الزاوية عند التعاونية الزراعية الوطنية، رأت سيّارة تشانو الذي كان يفرغها. هذا يعني أنّ الجدّ صيّاح قد عاد إلى المنزل. فأخذت زيتونة تجري في الزقاق متّجهة إلى البيت. استطاعت أن تشتمّ رائحته، لكنّها لم تره. أخيراً رأته في قعر الجدول الجافّ. لا بدّ أنّه انزلق وسقط.

نبحت زيتونة، وركضت إلى قعر الجدول، ثمّ تكوّرت حول الجدّ صيّاح. كان يرتجف، والدماء تسيل من جبينه. فنبحت بقوّة، على أمل أن يسمعها تشانو.

تشبّث بها الجدّ بضعف وقال: «زيتونة...». فذُعرت عندما أحسّت بأصابعه الباردة.

ركضت الجدّة، مسرعة إلى المكان. «آه، يا إلهي! أنا آسفة!».

«آه...».

«لقد سبقتك لتدفئة المنزل. وظننت أنّ تشانو خلفي!».

أخذ الجدّ صيّاح يئنّ، بينما هُرع تشانو لمساعدة والده. حمله على ظهره، وتبعتهم زيتونة، وهي تحدّق إلى ذراعَي وساقَي الرجل العجوز وهي تتأرجح في الهواء. بقيت في الخارج، بينما انشغل الجميع في المنزل، ثمّ هبّت رياح باردة وكنست الأوراق في أرجاء الفناء.

بعد بضعة أيّام، خلا المنزل مجدّداً، إذ نُقل الجدّ صيّاح إلى المستشفى في الصباح الباكر. جاءت يونغسون في وقت لاحق من تلك الليلة لأخذ بعض الأغراض إلى المستشفى، ولم يعد أحد من بعد ذلك. كانت زيتونة قد أُعطيت كتلة من الأرزّ البارد الصلب، من دون أيّ ماء. فشعرت بالخوف.

صاح العقعق، قاق، قاق، قاق، ونقر ثمرة الكاكي الوحيدة المتبقّية في أعلى الشجرة. إذا كفّ هذا الطائر عن المجيء، فستصبح زيتونة وحيدة تماماً. اشتاقت إلى وجود الهرّة العجوز، حتّى عندما كانت تأتي لمجرّد السخرية، كما اشتاقت إلى عزيزة أيضاً. حتّى الدجاجة المزعجة كانت أفضل من هذه الوحدة. تمنّت لو كان باستطاعتها أن تغفو قليلاً، غير أنّ معدتها الفارغة جعلتها تشعر بمزيد من البرد، على الرغم من أنّها كانت مكوّرة حول نفسها. لو أنّ القفص كان مفتوحاً، لدخلته. على الأقلّ، كانت ثمّة بطّانية هناك. الوجار أيضاً كان شديد البرودة.

دخلت أخصّائية الوخز بالإبر منادية: «هل من أحد في المنزل؟».

لعقت زيتونة فمها، وأطلّت برأسها إلى الخارج عندما اشتمّت رائحة الطعام.

جرّبت المرأة فتح الباب الأمامي، لكنّها وجدته مقفلاً، فاستدارت نحو زيتونة. «أيّتها المسكينة، أنت تعانين مع مالكك». ثمّ صبّت لها الطعام في وعائها وهي عابسة. أملت زيتونة أن يكون مرق لحم، لكن كانت فطائرَ كيمتشي. فالتهمتها على كلّ حال.

تمتمت المرأة قبل أن تغادر: «أتساءل ما إذا كانت الجراحة قد سارت على ما يرام».

انعقد حلق زيتونة. يبدو أنّ الجدّ صيّاح مريض جدّاً. ارتعشت وفكّرت أنّ عليها تناول شيء آخر، فقد كانت أحشاؤها تتلوّى من شدّة الجوع. خرجت ببطء من البوّابة، فآلمتها ركبها. مشت في الحقول، محاولة البقاء ثابتة على قوائمها المرتعشة. كانت الثلوج قد تساقطت في الليلة الفائتة، فشعرت بمزيد من البرد هنا. عندما لم تجد شيئاً تأكله في أيّ مكان، ذهبت إلى منزل أخصّائية الوخز بالإبر. كانت ستأكل بامتنان أيّ شيء، حتّى لو كان مزيداً من فطائر الكيمتشي.

زمجر كلب الطبيبة وكشّر عن أنيابه. كان قد كبر وبدا وجهه عنيداً ومختلفاً تماماً عن الكلب الصغير الذي مرّ بها على أمل الدردشة والمصادقة. سخر منها الكلب قائلاً: «أنت نكرة الآن».

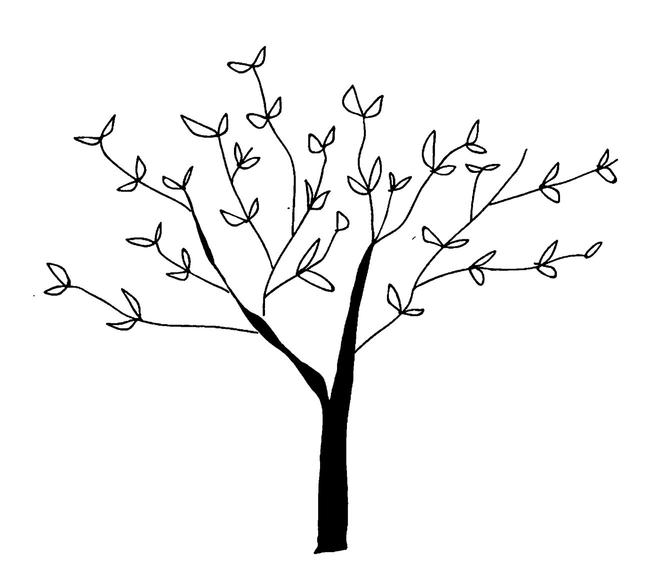
تدفّقت الدماء إلى وجه زيتونة. أرادت أن تستدير، لكنّ جسدها لم يصغَ إليها، فقد كان الوعاء الموضوع أمام الكلب يفيض بالطعام الساخن. تملّكها الجوع بحيث نفرت الدموع من عينيها. هكذا، ومن دون أن تفكّر مرّتين، انقضّت على الطبق وأخذت قضمة.

نبح الكلب قائلاً: «ماذا تعتقدين أنّك فاعلة؟»، وعضّها من كتفها. مزّقت أسنانه الحادّة لحمها، ولكنّها تمكّنت من ابتلاع ما كان في فمها. ثمّ حاولت أن تختطف المزيد، لكنّه كان لا يزال قابضاً على كتفها، فهزّها بعنف. وعندما سقطت أرضاً، تملّكتها رغبة في البكاء.

حذّرها الكلب قائلاً: «الكلاب تتبع مصير مالكيها، وقد سمعت أنّ العجوز يُحتضر. ألا تدركين أنّك تتصرّفين بشكل مخجل؟».

كان عليها الرحيل. علق الطعام الذي ابتلعته في حلقها وارتجفت عندما لفحت الرياح جرحها المفتوح.

حين عادت إلى المنزل، تردّدت أمام وجارها. لم تكن راغبة في الدخول، ولكن لم يكن لديها مكان آخر تذهب إليه. عندما تستيقظ، سيكونون قد عادوا إلى المنزل. هكذا، دخلت وتكوّرت على نفسها. وعندما جلّد البرد عظامها، تكوّرت أكثر.



الطريق إلى الصداقة

«ماذا حلّ بك؟».

فتحت زيتونة عينيها لتجد وجه الجدّ صيّاح المتجعّد قريباً منها. أرادت أن تلعقه، لكنّ فمها كان مليئاً بالطعام، فقد كان يلقّمها العصيدة بالملعقة.

«هذا لن ينجح...». ازدادت تجاعيد وجهه عمقاً عندما تقيّأت زيتونة كلّ الطعام. مرّر يده النحيلة على عنقها وبطنها وقوائمها، لكنّ يده لم تكن دافئة أو رقيقة. فهي لم تشعر بأيّ شيء.

قالت الجدّة وهي تأخذ منه الملعقة: «أنا سأطعمها، ادخل أنت واسترح قليلاً».

نهض الجدّ صيّاح مستنداً إلى الحائط، ونظر هو وزيتونة إلى بعضهما البعض. كان قد أصبح نحيلاً وأكبر سنّاً، وكانت عظام وجنتيه بارزة. «كُلي، كُلي، لكي تعيشي. على الأقلّ، أنتِ يجب أن تعيشي». كانت عيناه غائرتين وشفّافتين جدّاً بحيث بدا وكأنّه ينظر إلى مكان آخر.

نظرت زيتونة حولها وشعرت بالدفء. كانت في المطبخ.

قالت الجدّة وهي تضع العصيدة في فمها: «هيّا كلي، عليك

أن تعيشي لكي يشعر سيّدك بالأمل».

أرادت زيتونة أن تأكل، لكنّها لم تستطع ابتلاع أيّ طعام، إذ كان ثمة شيء قاسٍ عالق في صدرها. تقيّأت من جديد، فتنهّدت الجدّة وكفّت عن المحاولة. شعرت زيتونة بالدوار وأغمضت عينيها. لم تعد تشعر بالبرد، وقد عاد الجدّ صيّاح. أرادت أن يبقى كلّ شيء على هذه الحال. استغرقت في النوم مجدّداً، وعندما استيقظت، كانت لا تزال تشعر بالدوار بحيث لم تستطع فتح عينيها. لكن من وقت إلى آخر، ومع أنّ عينيها كانتا مغمضتين، إلّا أنّها استطاعت سماع ما يدور حولها. كانت الجدّة تتجوّل في المكان والجدّ صيّاح يئنّ. وبدا كلّ شيء كما لو أنّه آتٍ من مكان بعيد.

قالت الجدّة: «أنا آسفة، ولكنّني لا أستطيع أن أدعه يراكِ وأنت على هذه الحال. فهذا سيجلب الشؤم»، ثمّ كافحت لحملها. وضعتها في الخارج ومرّرت يدها على جسدها للحظة. كان الجوّ بارداً، لكنّها لم تشعر لا بالبرد ولا بالحزن. فالرياح التي كانت تهبّ عبر قلبها كانت لطيفة وباردة. واصلت إغفاءتها. وحتّى عندما استيقظت، لم تفتح عينيها. خطر ببالها فجأة أنّها تحتاج إلى النهوض والذهاب إلى وجارها. فوقفت ببطء، وشعرت أنّ جسدها متصلّب. بالطبع، فهي لم تأكل شيئاً، كما أنّها لم تتحرّك منذ وقت طويل. غير أنّها شعرت بوجود اختلاف. فقائمتها الخلفية لم تتحرّك. ولم تستطع أن تسير بشكل صحيح

بسـبب سـاقها المكوّرة. هكذا، سـقطت مراراً، وبقيت على هذه الحال طويلاً. أخيراً، نهضت ومشت متعثّرة. سقطت بضع مرّات، لكنّها تمكّنت من الوصول إلى الوجار.

ستشعر بتحسّن بعد أن تأخذ قسطاً أكبر من النوم. استلقت بأكثـر وضعيـة مريحـة اسـتطاعت إيجادهـا، ثمّ أغمضـت عينيها مجدّداً. من بعيد، سمعت الموسيقى، فغمرها شعور بالفرح.

علا النحيب في المنزل، وسمعت زيتونة أشخاصاً يندفعون وهم يبكون. حاولت أن تفتح عينيها لترى ما يجري، لكنّ جفنيها كانا ثقيلين للغاية، بحيث شعرت كأنّهما ملتصقين، وعجزت عن تحريكهما. سادت لحظة من السلام، توقّف فيها كلّ شيء. عليها أن تفتح عينيها وتنهض.

«زيتونة؟» كان صوتَ الجدّ صيّاح.

رفعت رأسها وشعرت أنّها خفيفة. بدا صوته مبتهجاً للغاية، بحيث ملأها بالطاقة. كانت الشـمس سـاطعة جدّاً عندما فتحت عينيها أخيراً، وسـرعان ما اعتادت على الوهج. وجدت شـجرة الكاكي كثيفة الأوراق، وبقعةَ الأزهار مليئة بالبراعم.

ناداها الجدّ صيّاح مجدّداً: «زيتونة؟».

رفّت عينيها. كان الصوت آتياً من الشجرة، أو بالأحرى من السلّم الحلزوني. وكانت شـجرة الكاكي ترتفع بشـموخ تحت قبّة السـماء. متى أصبحت بهذا الطول؟ اكتسـى السلّم بالأغصان الخضراء وامتدّ إلى ما لا نهاية.

كان الجدّ يتسلّق الدرجات ويومئ لها. خلفه، رأت جراءها. كما رأت أخاها المرقّط الذي مات في الحديقة، والجرو الأسود الضعيف، أوّل صغارها. ابتسمت زيتونة وقفزت خلفهم. كان ثمّة جـراء لـم تتح لها فرصة المشـي تصعد السـلّم أيضـاً، وصديقتها العجوز تناديها.

